المقدمة

الحمد الله رب العالمين، حمداً يليق بجلاله، ويكافئ نعمه، حمداً له على نعمائه وآلائه التي لا تعد ولا تحصى، حمداً له على الإيمان والقرآن، والصلاة والسلام على خير من صلى وصام، وخير من قرأ القرآن وعظَّمه، ومن سار على نهجه، واقتفى أثره إلى يوم الدين، أما بعد:

فسيظل كتاب الله نبعاً فياضاً، ومورداً عذباً نميرا يتوافر عليه الدارسون والباحثون؛ للنظر في بلاغته، والوقوف عند دُرَر بيانه، وبدائع فرائده، وليس لهذه الدرر، وتلك البدائع غاية تنتهي إليها، ولا حدٌّ تقف عنده، ولكنها درر مستقرة في أعماقه، وفرائد لا تظهر إلا لمن غاص في أعماقه، ولمن سعى ونقَّب، وبحث ونظر، وأمعن ودقَّق، ولمن أخلص النية، ونقى السريرة، ثم هو. بعد ذلك وقبله – توفيقه – سبحانه – وتسديده، ولا بد من السعي والكد خلف هذه الدرر لاستخراجها، والوقوف عند دقائقها وأسرارها.

وكان لزاماً من أجل تحقيق هذه الغاية، والظفر بها من معاودة النظر، وإنعام التدبر، وإطالة البحث والمراجعة لكتاب الله، ولكلام أهل العلم المحققين، ومن هنا جاءت الرغبة في الكتابة في هذا الموضوع؛ للوقوف عند أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية.

وقد قصرت الدراسة على سورة الإخلاص والمعوِّذتين، فسأسعى – إن شاء الله – خلال هذه الدراسة لإظهار الأسرار البلاغية الكامنة في طيات هذه السور، المستقرة في أعماقها؛ من أجل بيانها وتأملها.

وثمة أسباب دعتني لاختيار هذه السور، والكتابة فيها، ولعل من أهم هذه الأسباب ما يأتي:

1– فضل هذه السور، فقد ورد كثير من الأحاديث الصحاح التي تبين

فضل هذه السور، وعظيم منْزلتها، وعلو قدرها، وسأذكر هذه الأحاديث في صدر هذه الدراسة؛ لنكون على بينة منها وبيان.

2- ما ورد في الصحاح من الأمر بقراءتها في كل يوم وليلة، صباحاً ومساء، فهذه السور من ورد المسلم وذكره يتحصن بها من شياطين الإنس والجن، ومن شر كل ذي شر، ومن شر كل حاسد وساحر.

ولا يخفى أن الأمر بقراءتها والمواظبة عليها دلالة على أمر كامن فيها، وسأسعى في هذه الدراسة لكشف شيء من هذه الأسرار، وإظهار تلك الدلالات.

3- ختم القرآن الكريم بهذه السور، ولختم القرآن بهن دلالة يحسُن الوقوف عندها، والإشارة إليها؛ وذلك أن الخاتمة من المواضع التي يتأنق بها المرء، ويجهد نفسه في تحبيرها، فإذا كان ذلك في كلام البشر وبيانهم فما الظن في كتاب الله الذي بلغ الغاية في الإعجاز؟ وسأتطرق إلى هذا الأمر وبيانه في هذه الدراسة إن شاء الله تعالى.

ومن هذه الأسباب مجتمعة تبزر أهمية هذا الموضوع، فحسب هذا الموضوع أنه وقفة مع سور من كتاب الله تعالى؛ للنظر في أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية، ويزيد هذا الأمر أهمية وشأناً أنها دراسة لسور كاملة، فَسَتَسْلمُ هذه السور في هذه الدراسة من الاقتطاع والتجزئة، وهو أمر بالغ الأهمية في الدراسات البلاغية؛ وذلك أن اقتطاع الشاهد من سياقه يفقده كثيراً من دلالاته وأسراره.

وما يجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن هذه الدراسة تتجه إلى بيان الأسرار البلاغية، والنكت البيانية التي تضمنتها هذه السور، وهو أمر من الأهمية بمكان، وذلك أنه يظهر تميز هذه الدراسة وتفردها، واستقلالها بهذا

الأمر؛ وذلك أن كثيراً من الدراسات لهذه السور كانت تتجه إلى كشف معانيها، وبيان فضلها، وذكر ما ورد في السنن والصحاح من فضلها، ومن تلك المؤلفات على سبيل المثال لا الحصر: كتاب "فضائل القرآن" لابن كثير، وكتاب "فضائل القرآن ومعالمه وآدابه" لأبي عبيد القاسم بن سلام، وكتاب "فضل سورة الإخلاص وما لقارئها" للحافظ المحدث أبي محمد الحسن الخلال.

بل إن هناك دراسات بيانية لهذه السور، إلا أنها جاءت ضمن دراسة لمجموعة من السور القرآنية، ومن ذلك: كتاب "على طريق التفسير البياني" للدكتور فاضل السمرائي، وكتاب: "التفسير البياني" للدكتور عائشة بنت الشاطئ، وغيرها من الكتب، وما يميز هذه الدراسة أنها انفردت بالدراسة البيانية لهذه السور دون غيرها، وذلكم هو الجديد في هذه الدراسة، واللبنة المضافة إلى الدراسات في البلاغية القرآنية.

وقد اقتضتْ طبيعة هذه الدراسة تقسيمها إلى أربعة مباحث:

المبحث الأول: التفسير البلاغي لسورة الإخلاص.

المبحث الثاني: التفسير البلاغي لسورة الفلق.

المبحث الثالث: التفسير البلاغي لسورة الناس.

المبحث الرابع: الحكم والأسرار في ختم القرآن الكريم بسورة الإخلاص والمعوذتين.

وقد صُدِّرتْ الدارسة بمقدمة وتمهيد، ذكرتُ في المقدمة أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة عليه، وخطة البحث ومنهجه، وتضمن التمهيد حديثاً عن فضائل السور الثلاث، وأسباب نزولها.

وأما المنهج الذي سرتُ عليه فهو دراسة السورة كاملة على نهج

المفسرين في تناولهم لهذه السور، بيد أني أعنى بالجانب البلاغي، ومن هنا جاءت تسمية هذه الدراسة بـ(التفسير البلاغي لسورة الإخلاص والمعوذتين)، ولذا فسأقف مع كل آية من آيات السور الثلاث، وسيكون تناولي لها في سياقها الذي وردتْ فيه، دون بترها من سياقها الذي جاءت فيه.

كما أني لن أفصل بين الأساليب البلاغية في هذه الدراسة وبين معنى كل آية؛ وذلك أن هذه الأساليب جزء رئيس من المعنى، لا يظهر المعنى إلا بها، ولا يتم إلا من خلالها، ولذا ينبغي أن تتجه عناية المفسرين والمتخصصين إلى بيان هذه الأسرار البلاغية وإظهارها، وأن تأخذ حقها كاملاً غير منقوص في الدراسات القرآنية، ولا يصح أن تُذكر على عجل، أو بعد الانتهاء من بيان المعنى، وكأنها شيء ثانوي في المعنى، تأتي بعد اكتمال المعنى وظهوره، فضلاً عن الطريقة التي يتم من خلالها تناول هذه الأساليب البلاغية، واقتطاعها من السياق الذي جاءت فيه، والاكتفاء بالقول أن في هذه الكلمة تشبيها أو استعارة أو غير ذلك، دون الإشارة إلى أثر هذه الأساليب في بناء المعنى وظهوره، ولذا سأتجه في هذه الدراسة إلى هذه الأساليب البلاغية، وسأقصر جهدي واهتمامي في إبرازها، والإشارة إلى أثرها البالغ في بناء المعنى وظهوره، من خلال السياق الذي جاءت فيه، ومع ذلك فلن أتطرق كثيراً إلى معنى السورة، وبيان مفرداتها إلا بالقدر الذي تتطلبه هذه الدراسة؛ من أجل إظهار الأسرار البلاغية، ولذا فلن أذكر في هذه الدراسة إلا ما يمت للبلاغة بسبب.

وأحب أن أبين في هذا المقام مرادي بالتفسير البلاغي في هذه الدراسة، فأنا أقصد من ذلك أن هذه الدراسة ستتجه إلى بيان أسرار التراكيب في هذه السور، وإظهار خصائصها التعبيرية بذكر ما تضمنه النظم القرآني من أساليب بلاغية، لا حصر لها من تقديم وتأخير، ومن حذف وذكر، ومن تعريف وتنكير،

ومن اختيار للألفاظ ذات الإيحاء والظلال، وغير ذلك مما يتميز به نظم القرآن الكريم.

وهذا الأمر من الأهمية بمكان، بل إن ذلك هو سرُّ إعجاز القرآن الكريم، وهو سبب عجز المشركين أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، ولذا فقد طفق العلماء يشيرون إلى بلاغة القرآن وإعجازه، والإشادة به، بل الأمر بدراسة هذه البلاغة، والوقوف عندها، وسأكتفي بالاستدلال على ذلك بقول أبي هلال العسكري، يقول: «اعلم– علمك الله الخير، ودلَّك عليه، وقيضه لك، وجعلك من أهله – أن أحق العلوم بالتعلم، وأولاها بالتحفظ– بعد المعرفة بالله جل ثناؤه – علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يُعرف إعجاز كتاب الله تعالى.. وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصَّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التراكيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمّنه من الحلاوة، وجلَّله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيرت عقولهم فيه.. وقبيح لعمري بالفقيه المؤتم به، والقارئ المتهدَى بهديه.. وبالعربي الصليب، والقرشي الصريح ألا يعرف إعجاز كتاب الله تعالى إلا من الجهة التي يعرفه منها الزنجي والنبطي، أو أن يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبي، فينبغي من هذه الجهة أن يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله... » (1)

وبعد: فهذا ما سأسعى إليه في هذه الدراسة – إن شاء الله تعالى –، وسأحرص على تحقيقه والوصول إليه، فإن تم ذلك على الوجه الذي أريد، فقد

---

(1) كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر: 7، لأبي هلال العسكري.

حققت مرادي، وأصبت مبتغاي، وإن كانت الأخرى فحسبي بذلي واجتهادي، والله – سبحانه – هو الذي يتولانا بأمره، ويوفقنا إلى السداد والصواب.

التمهيد

أولاً – فضائل هذه السور:

مما يحسُن بيانه في هذه الدراسة ذكر شيء من فضائل هذه السور، وبيان مناسبة نزولها؛ ليكون ذلك تمهيداً لهذه الدراسة وتوطئة لها، ومدخلاً إلى بيان أسرار هذه السور البلاغية، ونكتها البيانية.

أما ما يتعلق بفضائل هذه السور فقد ورد في الصحاح والسنن كثير من الأحاديث الدالة على شرف هذه السور، وعظيم قدرها ومنزلتها لدى من تكلم بها وأنزلها.

أ – فضل سورة الإخلاص

أما سورة الإخلاص فإن فضلها كبير، ونفعها عظيم، وقد أُفردت هذه السورة بالتأليف في فضلها، والإطناب في بيان ما رُوي فيها، ولا غرو في ذلك فقد «صحت أحاديث كثيرة في فضلها، فمن فضائل هذه السورة: أنها تعدل ثلث القرآن، كما أنها عنوان التوحيد، وهي رمز الإخلاص في العبودية، ونفي الشرك والتعددية، وفيها اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى، وفيها صفات الربوبية المطلقة التي بها معرفة الله الحقة، فكلما كررها العبد كرر صفاته، وأعلن توحيده، وفي ذلك إرغام للشيطان، وتخزية له».(1)

يدل على هذا الفضل، وتلك المنْزلة حديث عائشة – رضي الله عنها – أن النبي ε بعث رجلاً على سَرِيَة، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ε، فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك، فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال

---

(1) فضائل سورة الإخلاص و مالقارئها: 41، لأبي محمد الحسن الخلال.

النبيε: خبروه أن الله يحبه).(1)

ومن ذلك – أيضاً .: حديث أنس τ قال: (كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، حتى يفرغ منها، ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه، فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أنا بتاركها، وإن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي ε أخبروه الخبر، فقال: يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك؟ وما يَحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟ فقال: إني أحبها، قال: حُبك إياها أدخلك الجنة). (2)

ومما ورد في فضلها – أيضاً .: حديث أبي سعيد الخدري τ قال: قال النبيε لأصحابه: (أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يارسول الله؟ فقال: الله الواحد الصمد، ثلث القرآن). (3)

وغير ذلك مما ورد في فضلها، وفي ما تقدم دلالة بينة على فضل سورة

---

(1) صحيح البخاري: كتاب التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، رقم الحديث: 7375

(2) صحيح البخاري: كتاب الأذان، باب: الجمع بن السورتين في الركعة والقراءة بالخواتيم، وبسورة قبل سورة، وبأول سورة، رقم الحديث: 774.

(3) صحيح البخاري: كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل قل هو الله أحد، رقم الحديث:5015.

الإخلاص، وإشارة واضحة إلى جليل قدرها، فحسبها شرفاً ومنزلة أن كانت سبباً لدخول ذلك الرجل الجنة، وسبباً لحب الله له، وإنه لخير عظيم أن يُوفق المؤمن إلى حب الله ومرضاته، ويُبشر بدخول الجنة، وقد نال ذلك الصحابي τ هذا الأجر بحبه لهذه السورة، ولزوم قراءتها، والمواظبة عليها، فنال بذلك أجراً عظيماً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وأما حديث أبي سعيد، ففيه الدلالة الواضحة على فضل سورة الإخلاص، وعظيم قدرها، وعلو منْزلتها، فحسبها شرفاً وقدراً أنها تعدل ثلث القرآن الكريم، فهي وإن قلت آياتها، وحُصرت كلماتها إلا أنها تعدل ثلث القرآن في المثوبة والأجر، وبذلك نطق الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، ولا يعني كونها تعدل ثلث القرآن أنها « تقوم مقام ثلث القرآن بدليل أن الإنسان لو كررها في صلاة الفريضة ثلاث مرات لم تكفه عن الفاتحة، مع أنه إذا قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأن القرآن كله، لكنها لا تجزئ عنه، ولا تستغرب أن يكون الشيء معادلاً للشيء ولا يجزئ عنه ».(1)
ومما يدل على فضلها: مواظبة رسول الله ε على قراءتها، فقد كان يقرأ بها في سنة الفجر، وفي سنة المغرب، وفي ركعتي الطواف، كما كان يقرأ بها في الوتر، ولا غرو في ذلك؛ فهي مبنية على الإخلاص لله – عز وجل – ومن هنا سُميت بسورة الإخلاص.(2)

ب – فضل سورة المعوذتين

ورد في فضل هاتين السورتين أحاديث عن رسول الله ε تبين فضلهما، وشرف قدرهما، ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر τ قال:

---

(1) تفسير جزء عم: 351، لمحمد بن صالح العثيمين.

(2) انظر: المصدر السابق: 351.

قال رسول الله ε: (ألم تر آيات أُنزلت هذه الليلة لم يُر مثلهن قط ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. (1)

ومن فضائل هاتين السورتين حديث عقبة بن عامر قال: (بينا أنا أقود برسول الله ε في نقب من تلك النقاب، إذ قال لي: يا عقبة ألا تركب، قال: فأجللتُ رسول الله ε أن أركب مركبه، ثم قال: ياعُقيب ألا تركب؟ فأشفقت أن تكون معصية، قال: فنزل رسول الله، وركبت هُنَيَّة، ثم ركب، ثم قال: يا عقيب: ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بها الناس؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: فأقرأني ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم أُقيمت الصلاة، فتقدم رسول الله ε، فقرأ بهما، ثم مرَّ بي، قال: كيف رأيت يا عقيب، اقرأ بهما كلما نمت، وكلما قمت). (2)

وفضل هاتين السورتين من خلال هذه الأحاديث ظاهر جلي، فهاتان السورتان – كما ذكر رسول الله ε خير سورتين قرأ بها الناس، ولك أن تطلق عنان فكرك، وأن تنعم النظر في دلالات هذه الألفاظ، فستجد أنها تدل على الخير الكثير، وقد حازتا فضل السبق فكانتا بذلك خير سورتين قرأ هما الناس.

يدل على هذا الفضل ويؤكده الحديث المتقدم، وهو قوله (ألم تر آيات أُنزلت هذه الليلة لم يُر مثلهن قط﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

وثمة أحاديث أخرى جاء فيها ذكر فضائل هذه السور الثلاث مجتمعة بخلاف الأحاديث السابقة التي انفردت سورة الإخلاص فيها عن المعوذتين،

---

(1) صحيح مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة المعوذتين، رقم الحديث: 818.

(2) مسند الإمام أحمد بن حنبل، رقم الحديث: 17429.

ومنها: حديث: عقبة بن عامر قال: (بينا أنا برسول الله ε راحلته في غزوة إذ قال: ياعقبة قل، فاستمعتُ، ثم قال: ياعقبة، فاستمعتُ، فقالها الثالثة، فقلت: ما أقول؟ فقال: (قل هو الله أحد)، فقرأ السورة، حتى ختمها، ثم قرأ (قل أعوذ برب الفلق)، وقرأتُ معه، حتى ختمها، ثم قرأ (قل أعوذ برب الناس) فقرأتُ معه حتى ختمها، ثم قال: ما تعوَّذ بمثلهن أحد). (1)

كما يدل على فضل هذه السور الثلاث مواظبة رسول الله ε على قراءتهن جميعاً في كثير من الحالات، فكان إذا أوى إلى فراشه قرأ هذه السور ونفث في كفه، ثم مسح بذلك وجهه، وما استطاع من بدنه،كما كان يقرأ بهذه السور بعد كل صلاة (2)، وفي ذلك الدلالة الواضحة على فضل هذه السور، وعظيم قدرها، وشديد نفعها.

ومن أجل هذا الفضل، وتلك المنْزلة لهذه السور الثلاث كلها جاءت هذه الدراسة، فثمة أمور كثيرة اشتركت فيها هذه السور، وليس ذلك مقصوراً على الفضل والمنْزلة، بل تجاوز ذلك حتى في بناء هذه السور في مفرداتها وتراكيبها، وهذا لا ينافي أبداً أن هناك كثيراً من الخصائص الموضوعية والأسلوبية انفردت بها كل سورة عن الأخرى، وسأبين هذا كله في هذه الدراسة.

ثانياً – سبب نزول هذه السور

أما ما يتعلق بسبب نزول هذه السور، فلم تنزل هذه السور الثلاث جملة واحدة، فقد نزلت سورة الإخلاص أولاً، وبعد ذلك بمراحل نزلت المعوذتان معاً، يدل على ذلك ما ورد في أسباب نزول هذه السور، وبيان ذلك: أن سبب نزول سورة الإخلاص أن المشركين قالوا لرسول الله ε: انسب لنا ربك، فأنزل

---

(1) سنن التسائي، كتاب: الاستعاذة، رقم الحديث: 5431.

(2) انظر: تفسير جزء عم: 356، لمحمد بن صالح العثيمين.

الله – تعالى – هذه السورة؛ بياناً لما طلبوا، وسألوا عنه. (1)

وثمة قول آخر في سبب نزول هذه السورة، وهو (أن ناساً من أحبار اليهود جاؤوا إلى النبي ε، فقالوا: صف لنا ربك يا محمد؛ لعلنا نؤمن بك، فإن الله أنزل نعته في التوراة، فأخبرنا من أي شيء هو؟ وهل يأكل ويشرب؟ ومن يرث السماء؟ ومن يرث الأرض؟ فأنزل اللّه هذه السورة) (2)**، رداً على سؤالهم، وإجابة لما طلبوا بيانه، ذاكراً لهم أنه – سبحانه – الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير، كما أنه – سبحانه – ترفع وتنزه عن الشبيه والعديل.** (3)

وأما المعوذتان فقد أنزلهما الله – سبحانه وتعالى – شفاء ورقية لرسول اللهε من سحر لبيد بن الأعصم اليهودي له، فهي له ε ولأمته إلى يوم القيامة، يدل على ذلك قول عائشة – رضي الله عنها – (سَحَرَ رسولَ الله رجلٌ من بني زُرَيق يقال له: لَبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله يُخيَّل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم، أو ذات ليلة وهو عندي، لكنه دعا ودعا، ثم قال: يا عائشة، أَشعَرْتِ أن الله أفتاني فيما استفتيتُه فيه؟ أتاني رجلان، فَقَعدَ أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وَجَعُ الرجل؟ فقال: مَطبوب، قال: من طبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مُشطٍ ومُشاطة، وجُفِّ طَلْع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذَرْوَان، فأتاها رسول الله ε في ناس من أصحابه، فجاء فقال يا عائشة، كأنَّ ماءها نُقاعة الحناء، وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين، قلت: يارسول الله أفلا استخرجتَه؟ قال: قد عافاني الله فكرهتُ أن أُثير على الناس فيه شراً، فأَمر بها

---

(1)انظر: لباب النقول في أسباب النزول: 673، للسيوطي.

(2) معالم التنزيل: 455/4، لأبي محمد البغوي.

(3) انظر: تفسير القرآن الكريم: 607/4، لأبي الفداء ابن كثير.

فُدفنت). (1)

وذكر أن هذا السحر كان في وتر عُقد عليه إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله هاتين السورتين، وهي إحدى عشرة آية، سورة الفلق خمس آيات، وسورة الناس ست آيات، كلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى انحلت العقد كلها، فقام ε كأنما أُنشط من عقال. (2)

وبعد فهذا شيء من فضائل هذه السور الثلاث، وبيان لسبب نزولها، آثرتُ ذكرها في المقدمة؛ لتكون توطئة وبياناً في هذه الدراسة؛ لتضيء لنا جوانبها، ولتكشف شيئاً من الدلالات المهمة، والأسرار البلاغية لهذه السور.

* * *

---

(1) صحيح البخاري، كتاب: الطب، باب: السحر وقول الله تعالى (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر...)، رقم الحديث:5763

(2) انظر: معالم التنزيل: 4/546.

المبحث الأول: التفسير البلاغي لسورة الإخلاص

سورة الإخلاص:

﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤ ﴾

هي سورة مكية، يدل على ذلك سبب نزولها، وقد تقدم، كما يدل على ذلك – أيضاً – موضوع هذه السورة، ومضمونها، فضلاً عن مفرداتها وتراكيبها، وقوة ألفاظها، وشدة جرسها، وقوة وقعها، وتلك إشارة مهمة دالة على مكية هذه السورة، كما هو مقرر ومبين في علوم القرآن في الاستدال على مكية السورة أو مدنيتها. (1)

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ افتُتحتْ السورة بفعل الأمر "قل"، وفي استفتاح السورة بهذا الفعل، والبدء به كثير من الدلالات المهمة، والإشارات البالغة المراد تحقيقها وتقريرها في هذه السورة، ومن ذلك أن الاستفتاح بهذا الفعل توافق مع سبب نزول هذه السورة، فقد جاء ذلك إجابة لطلب المشركين، حين قالوا لرسول اللهε: انسب لنا ربك، فيقول الله لرسوله محمد إجابة لهذا الطلب، قل يا محمد لكفار قريش إن ربي هو الله الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد). (2)

كما أن في هذا الأمر دلالة على الجزم والحزم، فكأنه يقول له: قل ذلك يامحمد على وجه العزم والاعتقاد، وعلى وجه القوة والاستعلاء، وذلك أن

---

(1) انظر: مباحث في علوم القرآن: 52، د. مناع القطان، وعلوم القرآن الكريم: 61، د. عبدالمنعم نمر، وغيرهما.

(2) انظر: تفسير التحرير والتنوير: 612/30، للطاهر بن عاشور.

ربك هو المعبود الحق، فهو الأحد، الذي لا نظير له ولا مثيل، المنفرد بالصمدية الذي لم يلد ولم يولد.

وفي هذا دلالة على قربه– سبحانه – من رسوله ε، وأنه يتعهده بالحفظ والرعاية، ويلحظه بالاهتمام والعناية، وأنه يذود عنه ويحفظه ويحميه، بل يتولى الرد عنه ويرشده، ويأخذ بيده في المدلهمات، ويدفع عنه الملمات.

ومن الدلالات كذلك: الحفاوة التامة، والعناية البالغة بما سيأتي بعد فعل القول، فلعظم هذا القول، ولجليل خطره، وعظيم شأنه يُؤمر ε أمراً خاصاً بقوله وإبلاغه، مع أنه ε مأمور منه أن يبلغ القرآن كله.(1)

ومع ذلك فإفراد هذه السورة بأمر خاص بها دلالة على عظم الأمر المأمور به، يدل على ذلك موضوع هذه السورة ومضمونها، فقد ذُكر فيها أوصافه – سبحانه – وبيانه، وما انفرد به من الأحديه والصمدية، وما تنزه عنه من الولد والوالد والصاحبة، فلا غرو – والحالة هذه – أن يُؤمر ε أمراً خاصاً ببيان هذه الأمور، وقولها، وإبلاغها للناس.

وحين نتتبع فعل الأمر "قل" في القرآن الكريم حين يكون المأمور به رسول اللهε نجده في غاية الأهمية، فلعظيم أمره، وجليل قدره أُفرد بأمر خاص بهε بقوله وإبلاغه، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ * قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا تَجۡمَعُونَ﴾ (2) وقوله ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾(3)، وقوله

---

(1) انظر: المصدر السابق: 580/30.

(2) يونس: 57 – 58.

(3) الإسراء: 85.

﴿ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ (1)، وغيرها من الآيات.

وأما الضمير "هو" فيجوز أن يكون عائداً إلى الله – سبحانه وتعالى – بدلالة السياق عليه، ويدل عليه– أيضاً– سبب نزول السورة، حين قال المشركون: انسب لنا ربك، فيكون هذا الضمير على هذا المعنى مبتدأ، ولفظ الجلالة مبتدأ ثان، وتكون لفظة "أحد" خبراً للمبتدأ الثاني، والجملة كلها خبر المبتدأ الأول، وقد ذهب إلى هذا القول جمع من العلماء، ورجحوه على غيره.(2) وثمة قول آخر في هذا الضمير، وهو أنه ضمير الشأن، أو القصة، ومن ذلك قولهم: هو زيد منطلق، أي الشأن كذلك (3)، ولا يُسبق هذا الضمير بمتقدم يعود إليه، وإنما يُفسر بما يأتي بعده، لذا فهو من مواضع الإضمار في مقام الإظهار.

وقد تضمن الأسلوب كثيراً من الأسرار البلاغية، والنكت البيانية، وقد أشار جمع من المفسرين والبلاغيين إلى دلالات هذا الأسلوب وبلاغته، وبيان ذلك: أن وَضْعَ المضمر هنا موضع المظهر من غير ذكر متقدم له، يعود إليه فيه دلالة على أن هذا الضمير «من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل واحد، وإليه يشير كل مشير، وإليه يعود كل ضمير »(4)، فكأن صاحب هذا الضمير– وهو الله عز وجل – حاضر في النفس، قائم في القلب، فلا يخطر في البال سواه، ولا ينصرف الذهن إلاَّ إليه، ومن هنا جاء الإضمار في هذا السياق من غير متقدم له يعود عليه.

---

(1) سورة ص: 67.

(2) ومن هؤلاء العلماء: الزجاج، انظر: معاني القرآن: 337/5، والعكبري، انظر: التبيان في إعراب القرآن: 309/2، والشوكاني، انظر: فتح القدير: 515/5، وغيرهم.

(3) انظر: الكشاف: 298/4، للزمخشري.

(4) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 212/9، لأبي السعود محمد العمادي.

وثمة غرض آخر لهذا الضمير في هذا السياق، وهو أظهر من الغرض السابق وأولى، وهو أن الغرض من الضمير: التفخيم والتعظيم، كما أن فيه إجمالاً بعد تفصيل، وبياناً بعد إبهام، وبيان ذلك: أن مجيء الضمير مبهماً دون عائد متقدم يعود إليه من شأن ذلك أن يجعل المخاطب متلهفاً متشوقاً مترقباً إلى مجيء ما يفسر ذلك المبهم ويوضحه، وعندما يأتيه بيان ذلك فيستقر في نفسه، ويمكن في وجدانه أفضل تَمكُّن وأحسنه، وسيقع في نفسه موقعاً حميداً، ولا يخفى أن في إدراك الأمر بعد ترقب وانتظار، وتشوق وتلهف مزيداً من الإدراك له، والحرص عليه. (1)

وتتجلى أسرار هذا الضمير وتتضح لو خلا النظم القرآني من هذا الأسلوب وقيل (الله أحد)، فسنجد أن « الفخامة قد ولت، والروعة قد زالت؛ لأنه لم يتقدم عندئذ ما ينبه، ويثير النفس إلى التفتيش والتنقيب عن مفسر لما أُبهم، ولذا نجد ضمير الشأن أو القصة لا يستعمل إلا في الأمور المهمة، والأخبار ذات البال، والمعاني الجليلة»(2)، كما هو الشأن في هذه الآية.

ثم ذكر – سبحانه – تفسير هذا الضمير وبيانه، فأخبر أنه (الله الأحد)، فهو «الأحد المنفرد بالكمال الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير لا ولا مثيل »(3) إذن فقد تضمن هذا الضمير وما تلاه أمراً عظيماً يتعلق بحقيقة هذا الرب– سبحانه وتعالى– وهي حقيقة قمن أن تهيأ لها النفوس، وأن تُحفز لها العقول؛ لتظل مترقبة متلهفة متشوقة لمعرفة هذا الحقائق واستيعابها، والوقوف عليها، ومن ثَمَّ الإقبال عليها،

---

(1) انظر: إرشاد العقل السليم: 212/9، و: فتح القدير: 515/5.

(2) علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم المعاني: 224، د. بسيوني عبد الفتاح فيود.

(3) تيسير الكريم الرحمن في تفسير الكلام المنان: 5/ 473، للشيخ عبد الرحمن السعدي.

والإيمان بها، وتصديقها.

وقد أخبر – سبحانه – عن نفسه في هذه الآية أنه (أحد)، أي المنفرد بالألوهية والربوبية، الفرد الصمد الذي لا شبيه له ولا نظير، المنزَّه عن الند والشريك، ولذا « فلا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلاَّ على الله؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله»(1)

ورد وصف "الأحد" في الآية دون "الواحد"، ومن المفسرين من يرى ألا فرق بين "الواحد" و"الأحد"، فالواحد هو الأحد، والأحد هو الواحد (2)، إلا أن إيثار وصف "الأحد" دون الوصف الآخر "الواحد" دلالة على أن وصف "أحد" هو المراد في هذا السياق، وأن فيه من الدلالات والإيحاء ما ليس في الوصف الآخر، وذلك أن من بلاغة القرآن الكريم أنها تتجلى في اختياره للألفاظ التي تؤدي المعنى المراد وتحققه دون غيرها، فكتاب الله «لو نُزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد، ونحن تتبين لنا البلاغة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع؛ لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق، وجودة القريحة». (3)

ولذا طفق العلماء يُبيِّنون الفروق بين هاتين اللفظتين، بعد أن أنعموا النظر في دلالة كل لفظة، وغاصوا في معناها، وقد ذكروا كثيراً من الفروق بينهما، في بيان ما اختصت به كل واحدة عن الأخرى، ومن الفروق بينهما:

1– أن لفظة "أحد" لا يُبنى عليه العدد ابتداء، فلا يقال في العدد: أحد، اثنان، بخلاف الواحد، إذ تبدأ منها الأعداد، فيقال: واحد، اثنان، ثلاثة،

---

(1) تفسير القرآن العظيم: 607/4.

(2) انظر: معالم التنْزيل: 544/4.

(3) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 52/1، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي.

كذلك لا يكون لفظ "أحد" وصفاً للإنسان، فلا يقال: رجل أحد، كما يقال رجل واحد، ولذلك اختص هذا الوصف به سبحانه(1).

2- أن هذا الوصف مختص به- سبحانه- فقد أوثر التعبير به في هذه السورة المتضمنة ما اختص به- سبحانه- من الأسماء والصفات، ومن هنا يتضح سرُّ التعبير بهذا الوصف في هذا المقام، ومفارقته كذلك للفظة "واحد".

ولا يناقض هذا القول استخدام لفظة "واحد" لله- عز وجل- في موضع آخر، وذلك في قوله –تعالى – (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ومامن إله إلا إله واحد)(2)؛ وذلك أن لفظة "واحد" في هذه الآية جاءت مقابلة للاثنين والثلاثة، فقد استدعى المقام هذه اللفظة دون غيرها؛ لأنها وحدها التي تدل على المراد، وتؤدي الغرض، ومن هنا فقد استعمل القرآن كل لفظة في مكانها اللائق بها، والمناسب لها، وذلك مكمن بلاغة القرآن في توخيه الألفاظ في الدلالة على معانيه ومقاصده. (3)

3- أن "الأحد" أكمل وأعم من "الواحد"، وبيان ذلك: أننا إذا قلنا فلان لا يقوم له واحد، فإن ذلك لا ينفي أن يقوم له اثنان أو ثلاثة فما فوقهما، بخلاف قولنا: فلان لا يقوم له أحد، فقد نفينا من خلال هذه الصفة وجزمنا الجزم القاطع أنه لا يقوم له أحد (4)، ومن هنا كان هذا الوصف أبلغ وأكمل في الدلالة على النفي، ولذا جاء إيثاره في هذا السياق.

4- ثمة فرق لطيف بين هذين الوصفين، وهو أن وصف "واحد" يُذكر

---

(1) انظر: البحر المحيط:529/8، لأبي حيان الأندلسي، و: إرشاد العقل السليم: 212/9.

(2) المائدة: 73.

(3) انظر: على طريق التفسير البياني: 61/1، د. فاضل السمرائي.

(4) انظر: نظم الدرر في تناسب الآي والسور: 362/22، للبقاعي.

ويؤنث، فيقال: واحد، واحدة، كما أنه يجمع كذلك، فيقال فيه: وُحْدان، بخلاف لفظة "أحد" فإن هذا الوصف لا يُؤنث ولا يجمع (1)، وفي هذا الفرق دلالة مهمة، وإشارة بالغة في معرض الحديث عن ذكر أوصافه – سبحانه وتعالى – فهو فرد صمد، تفرد بالألوهية والوحدانية، وقد تنزه عن الولد والوالد والصاحبة، ومن هنا جاء وصف "أحد" في هذا السياق للدلالة على هذه المعاني، والإشارة إليها.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ **جاءت هذه الجملة مفصولة عن الجملة التي قبلها؛ وذلك أن بين الجملتين كمال الاتصال، وبيان ذلك أن هذه الجملة (** ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ**) كالنتيجة للجملة الأولى، والدليل عليها؛ وذلك أن من كان فرداً أحداً كان مستغنياً عن كل شيء، وكان كل شيء محتاجاً إليه ومفتقراً، فلا غرو بعد ذلك ألا« يُصمد في الحوائج إلا إليه، فظهر به أن كونه – تعالى – صمداً نتيجة متفرعة على أحديته، ووجه كونها كالدليل على الأولى أن من كان صمداً وملجأ لأرباب الحاجات لابد أن يكون في أعلى درجات الكمال، مُنزَّهاً عن جميع وجوه النقصان، قادراً على جميع الممكنات، عالماً بجميع المعلومات، وذلك يستلزم الأحدية»(2)، ومن هنا جاء الفصل بين هاتين الجملتين مشيراً إلى هذا المعنى، ودالاً عليه.**

يؤيد هذه المعاني كلها ويؤكدها الإظهار الذي تمَّ في هذه الآية وكان حقه الإضمار، فقد جاء الإظهار فيها على خلاف مقتضى الظاهر، ولو أتى الكلام على مقتضى الظاهر لجاء بالضمير (هو)؛ لتقدم مرجعه، بدلاً من الاسم الظاهر، وهو لفظ الجلالة، ولكن جاء الإظهار في هذا المقام لأسرار بلاغية

---

(1) انظر: ملاك التأويل:960/2، لأبي جعفر أحمد ابن الزبير.

(2) حاشية زادة على تفسير البيضاوي: 4/712، لمحي الدين شيخ زادة.

يُراد تحقيقها في هذا السياق، تتجلى هذه الأسرار من خلال الاسم المظهر، وهو لفظ الجلالة، إذ يراد من ذلك تربية النفوس على مهابة هذا الاسم، وتوقيره في النفوس وتعظيمه، يؤكد هذا الأمر كذلك أَنْ ذُكر مع هذا الاسم صفات عظمة لهذا الإله من شأنها أن تزرع في القلوب المهابة له، وتعظيمه، والوجل منه، والصمود إليه، وذلك آكد في إبراز هذه المعاني وتقريرها، من أجل استقرارها في النفوس، وتمكنها فيها أشد تمكن وأفضله.

وقد تعددت أقوال المفسرين وتنوعت في بيان المراد بالصمد، ولكنها على تعددها وتنوعها فإنها تدور في فلك واحد، وتؤول إلى شيء واحد لا تحيد عنه، ولا تختلف عليه؛ يحسن قبل ذكر تلك الأقوال وبيانها الإشارة إلى معناها ودلالاتها في اللغة العربية، فقد ذكر ابن فارس أن لفظة "الصمد" أصل في الدلالة على القصد، يُقال: صمدته صمداً، ويَصْمِده، وصمد إليه، كلها بمعنى القصد، ولذا فإنها تطلق على السيد المطاع؛ لأنه يُقصد في الأمور، كما أن الأمور لا تُقضى دونه، بل عن طريقه وإليه.(1)

والصمد من صفات الله – عز وجل – كما أخبر عن نفسه في هذه الآية (ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ) وقد جاء معنى هذا الوصف متوافقاً مع دلالته في اللغة، كما جاء كذلك مقررا لما هو معلوم في أذهان العرب، ومعروف لديهم، ولذا فينبغي أن تكون هذه المعاني اللغوية تحت نظرنا ونحن ننظر في معنى هذه اللفظة ونبين تفسيرها، فذلك هو الأولى،والأقرب للصواب في بيان معناها، وفي ذلك يقول الإمام الطبري – بعد أن ذكر معانيها اللغوية–: « فإذا كان كذلك فالذي

---

(1) انظر: مادة: قصد: معجم مقاييس اللغة لابن فارس، و:القاموس المحيط للفيروز أبادي، و:لسان العرب لابن منطور.

هو الأولى بتأويل الكلمة المعنى المعروف من كلام من نزل القرآن بلسانه».(1)

وفي وزن هذه اللفظة دلالة على معناها؛ وذلك أنها فَعَل بمعنى مفعول، من صُمد إليه إذا قصده، والمعنى: أنها بمعنى السيد المصمود إليه، المقصود في دفع الحوائج، ورفع الكرب والنوائب (2)، فهو سبحانه الذي يصمد إليه كل مخلوق، إذ هم لا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك، فهو الغني عنهم بذاته، وهم الفقراء المحتاجون إليه، يسألونه حوائجهم، ويفزعون إليه في المدلهمات، ويطلبون قضاء الحاجات، ويتضرعون إليه في تحقيق مصالحهم، وجلب منافعهم.

ففي هذه اللفظة الدلالة على أنه – سبحانه – المقصود في كل شيء، الذي بلغ الكمال والسؤدد في كل شيء يدل على ذلك قول ابن عباس τ «الصمد: السيد الذي قد كمُل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد عظُم في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالِم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤود، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلاَّ له». (3)

وفي تعريف لفظة "الصمد" إشارة إلى أن هذه المعاني التي احتوتها ودلت عليها أنها معانٍ معلومة لدى من خُوطب بها من المشركين، فهي معلومة لديهم ومشهورة، يقرون بها ويعترفون، ويؤمنون بها في قرارة نفوسهم، وهذا بخلاف تنكير لفظة "أحد" فهم لم يقروا بذلك ويؤمنوا به، بل أنكروا ذلك،

---

(1) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 744/12، لابن جرير الطبري.

(2) انظر: الكشاف: 298/4.

(3) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 744/12.

وكفروا به، وتعجبوا منه أشد العجب، كما بيّن ذلك تعالى عنهم في قوله ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾(1) وما العجب إلا أن تتعدد الآلهة، ولكنه الكفر والعناد الذي يجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، والمألوف عجباً، والعجب مألوفاً؛ كما تضمن تعريف لفظة "الصمد" الإشارة إلى أنها «كلمة جامعة لجميع صفات الكمال لله، وجامعة لجميع صفات النقص في المخلوقات، وأنها محتاجة إلى الله عز وجل».(2)

وقد زاد هذا المعنى وضوحاً وتأكيداً تعريف الطرفين في قوله ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ فقد أفاد ذلك القصر، فليس للإنسان ملجأ ولا ملاذ غير الله – سبحانه وتعالى، فحين تلم بالإنسان الملمات،وتحيط به النكبات فلن يجد سوى هذا الرب الكريم العظيم يعتصم به، ويلوذ بحماه.

وقد جاء القصر في هذا المقام ليدل على هذه المعاني ويقررها، بل إن بلاغة القصر في هذا السياق لا تقف عند هذه الغاية، وبيان ذلك: أن في هذا القصر إيجازاً وتوكيداً، ومكمن الإيجاز: أن الجملة التي تُؤدى بطريق القصر تقوم مقام جملتين؛ لاشتمالها على النفي والإثبات، فهي تفيد أنه وحده الذي تصمد إليه الخلائق كلها في حاجاتها، وفي الوقت نفسه تنفي ذلك عن كل ما عداه أياً كان، كما أنه مع إيجازه يفيد المبالغة والتأكيد في إثبات هذا المعنى وتقريره.(3)

ومن هنا كانت هذه الآية ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ من الكلمات الجامعة التي

---

(1) سورة:ص: 5.

(2) شرح العقيدة الواسطية: 143/1: لمحمد بن صالح بن العثيمين.

(3) انظر: من بلاغة النظم القرآني: 9/2، د.عبد العزيز عرفة، و: البلاغة الاصطلاحية: 250، د. عبده عبد العزيز قلقيلة.

تملأ النفس، و ستظل تفيض بالأسرار، والمعاني التي لا حدَّ لها ولا حصر، التي يُراد بيانها وتقريرها في هذا السياق.(1)

﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ وبعد أن ذكر – سبحانه – تفرده بالصمدية، وصمود الخلق إليه، وحاجتهم له، بيّن بعد ذلك مباينته الكاملة لهم في قوله ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ جاءت هذه الجملة مفصولة عن الجملة التي قبلها؛ وذلك أن بين الجملتين كمال الاتصال، فقد جاءت امتداداً للآية التي قبلها، وتأكيداً لها؛ وبيان ذلك أن كون الله – عز وجل – لا يلد ولم يولد في ذلك تأكيد وتحقيق لمعنى الصمدية؛ لأن في هذا إشارة إلى غنائه التام عن كل شيء، حتى إلى أقرب قريب للإنسان، وهم الولد والوالد، ففي الوقت الذي يظهر فيه افتقار الإنسان إلى الولد والوالد، وحاجته إليه، يذكر – سبحانه – انفراده التام في ذلك، وغناه الكامل عن كل شيء، ومن هنا يتبين دلالات الفصل بين هاتين الآيتين، ففي ذلك تحقيق لهذه المعاني، وتأكيد لها.

وفي ذكر هذه الصفة ﴿ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴾ في هذا السياق في معرض الإجابة على طلب المشركين حين قالوا: (انسب لنا ربك)، في ذلك إشارة إلى أنه – عز وجل «ليس بفانٍ؛ لأنه لا شيء يلد إلا وهو فانٍ بائد »(2)،كما أن في قوله (لم يولد) إشارة كذلك أنه «ليس بمحدث لم يكن فكان؛ لأن كل مولود فإنما وُجد بعد أن لم يكن، وحدث بعد أن كان غير موجود، ولكنه – تعالى – قديم لم يزل دائم لم يبد، ولا يزول ولا يفنى». (3)

وقد ورد تقديم نفي كونه والداً في قوله (لم يلد) على كونه مولوداً في

---

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم: جزء عم: 267، لمحمد محيي الدين عبد الحميد.

(2) جامع البيان: 144/12.

(3) المصدر السابق: 144/12.

قوله (ولم يولد) مع أن الواقع يخالف ذلك من حيث إن المرء يكون مولوداً أولاً ثم يكون والداً بعد ذلك، وقد ذكر العلماء أسرار هذا التقديم ودلالاته، فبينوا أن هذا من باب تقديم الأهم على المهم، وبيان ذلك: أن في قوله (لم يلد) رداً على النصارى الذين يقولون: إن عيسى ابن الله، كما تضمن كذلك رداً على اليهود القائلين: عزيز ابن الله، كما أنه ردٌّ على مشركي العرب القائلين: الملائكة بنات الله، فمن أجل رد هذا القول ودحضه جاء تقديم نفي الولد عنه – سبحانه – بخلاف قوله (ولم يولد) إذ لم يدع أحد أنه – سبحانه – مولود لأحد، وفي هذا إشارة إلى أن دعواهم الولد لله – عز وجل – فرية عظمى، وكذبة كبرى، كما بيّن– سبحانه– ذلك في موضع آخر في قوله ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدًّا تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوۡا۟ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ (1) وَلَدًا﴾ **فلشناعة هذه الفرية، وعظيم جرمها بدأ – سبحانه – بنفيها، والرد عليها، وبيان بطلانها، وشدة تهافتها.(2)**

وقد أورد الإمام الشنقيطي سؤالاً في معرض حديثه عن هذه الآية، يقول: «إذا كان ادعاء الولد قد وقع، وجاء الرد عليه، فإن ادعاء الولادة لم يقع فلماذا ذُكر نفيه مع عدم ادعائه؟ والجواب – والله أعلم–: أن من جوّز الولادة له، وأن يكون له ولد، فقد يجّوز الولادة عليه، وأن يكون مولوداً فجاء نفيها تتمة للنفي والتنْزيه»(3)، فكأن في هذا النفي (ولم يولد) تعليلاً للنفي السابق، وتأكيداً له،

---

(1) مريم: 88- 92.

(2) انظر: التفسير الكبير: 183/32، للفخر الرازي، 2، انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 9/ 621، للشنقيطي.

(3) انظر: أضواء البيان: 621/9.

فإذا ثبت أنه لم يكن ولداً لغيره، ثبت أيضاً وتبين أنه لم يلد غيره.

ولا يخفى– كذلك – أن إنكار أن له ولد أبلغ في الدلالة على وحدانيته وتفرده من إنكار أنه والد، ولهذا لم يدَّعِ أحد من الخلق بأن لله والداً بخلاف أن يكون له ولد، فقد ادعى المفترون ذلك، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً⁽¹⁾

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ **وبعد أن نفى – سبحانه – عن نفسه الولد والوالد أتبع ذلك بنفي المثيل له والنظير في قوله** ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، **وقد جاء نظم هذه الآية كلها في إبراز هذه الحقيقة وبيانها، يتجلى ذلك فيما يلي: أولاً: وصلها بالآية التي قبلها، فقد اتفقت هاتان الجملتان في الخبرية، كما أن بينهما مناسبة في المعنى، فقد سيقت هاتان الآيتان في معرض الحديث عن أوصافه سبحانه وما انفرد به، وفارق به سواه، من نفي الولد والوالد، ونفي – كذلك – الصاحب له، ومن هنا جاء الوصل بين هاتين الجملتين إشارة إلى هذا المعنى، ودالاً عليه.**

ثانياً: من خلال أسلوب التقديم والتأخير فقد تقدم (له) على متعلقه (كفؤاً) وفي هذا التقديم أسرار بلاغية، ونكت بيانية تم تحقيقها من خلاله، وقد كشف الزمخشري عن هذه الأسرار وأبانها، يقول: «هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه وتعالى وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف، فكان لذلك أهم شيء، وأغناه وأحقه بالتقدم وأحراه »⁽²⁾، ومن هنا جاء تقديم الجار والمجرور (له) إشارة إلى أهميته، وشديد الاعتناء به، إذ هو المدار الذي دارت عليه السورة كلها، ونزلت من أجله، فهو من تقديم الأهم.

---

(1) انظر: شرح العقيدة الواسطية: 144/1.

(2) الكشاف: 229/4.

وثمة تقديم آخر في هذه الآية، وهو تقديم خبر كان (كفؤاً) على اسمها (أحد)، وليس الغرض من هذا التقديم أمراً لفظياً، وهو مراعاة الفواصل، كما يذكر ذلك بعض المفسرين (1)، وذلك أن التقديم والتأخير في النظم القرآني أجلُّ وأسمى من أن يقدم أو يؤخر لغرض لفظي، فالتقديم في القرآن لا يكون إلا لغرض معنوي اقتضاه المقام، وتطلبه السياق، فيتم التقديم في القرآن تحقيقاً للغرض، ووفاء بالمعنى.

ولعل سرَّ هذا التقديم وسببه يتعلق باللفظة المقدَّمة في هذا السياق، وهي كلمة (كفؤاً)؛ إذ يراد في هذا المقام إبرازها وتقديمها على ما سواها، لأن فيها دلالة على نفي الكفء عنه – سبحانه – أياً كان ذلك الأمر المنفي عنه، كما أن في ذلك تعريضاً بالمشركين الذين جعلوا لله نداً ومثيلاً من أصنامهم وأوثانهم.

كما أن تأخير لفظة (أحد) وختم السورة بها تأكيد لهذه القضية المهمة، وتذكير بها، فقد بُدئت السورة ببيان أنه – سبحانه – (أحد) ثم خُتمت كذلك بنفي أن يكون له كفؤاً أحد، ولذا ستظل هذه الكلمة عالقة في أذهانهم، حاضرة في قلوبهم، علَّ ذلك أن يكون لهم زاجراً ورادعاً.

ولذا فإن من يتأمل هذه السورة، وينعم النظر فيها يجد أنها كلها مبنية على هذه الآية﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، ومتفرعة عنها، بل تكاد تكون تفسيراً لها وإيضاحاً، وبيان ذلك: أن الأحدية هي تفرده – سبحانه – بصفات الكمال والجلال دون سواه، ومن أحديته ألا يكون له ولد ولا والد؛ لأن المولود جزء من والده، كما أن جزءاً من الوالد فيما ولد، كما أن وجود الكفء يعارض الأحد، فليس أحداً من كان له كفء، ومن هنا يتبين أن نفي هذه الأمور كلها

---

(1) انظر: إرشاد العقل السليم: 213/9، و: التحرير والتنوير: 620/30.

تقرير لصفة الأحدية، وتأكيد لها، وهكذا تكون السورة كلها تقريراً لقوله ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، ومن هنا صُدرت السورة بهذه الآية، وبدئت بها. (1)

وقد ذكر الإمام الرازي كلاماً نفيساً في بيان موقع هذه السورة ومقاصدها، يقول: «إن هذه السورة في حق الله مثل سورة الكوثر في حق الرسول، لكن الطعن في حق الرسول كان بسبب أنهم قالوا: إنه أبتر، لا ولد له، والطعن هنا بسبب أنهم أثبتوا لله ولداً، وذلك أن عدم الولد في حق الإنسان عيب، ووجود الولد عيب في حق الله، فلهذا السبب قال هنا (قل) حتى تكون ذاباً عني، وفي سورة الكوثر أنا أقول ذلك عنك الكلام حتى أكون أنا ذاباً عنك، والله سبحانه وتعالى أعلم». (2)

وفي كلامه هذا كثير من الإشارات والدلالات المهمة في المقارنة بين هاتين السورتين، ولكني سأترك ذلك؛ خشية الإطالة، ولعل هاتين السورتين تُفردان بالدراسة؛ للوقوف عند وجوه الاتفاق بينهما، والوقوف– كذلك – عند ما انفردت به كل سورة عن الأخرى في خصائصهاالموضوعية والأسلوبية.

وبعد هذا التطواف المبارك في أرجاء هذه السورة وأفيائها، والاسترواح بظلها تتبين لنا منْزلتها وفضلها من خلال الوقوف مع معانيها، والنظر في خصائصها الموضوعية والأسلوبية، وإذا تبين ذلك فلا غرو أن تكون هذه السورة تعدل ثلث القرآن؛ لشرف مضمونها؛ وذلك أنها إخبار عن الله – عز وجل–، ولا يخفى شرف هذا الأمر ورفعته، فذلك أجل العلوم، وأولاها بالطلب والتحفظ، وقد أشار إلى هذا المعنى، وأكد عليه شارح العقيدة الطحاوية، يقول في مقدمة الكتاب: « فإنه لما كان علم أصول الدين أشرف العلوم؛ إذ شرف

---

(1) انظر: أضواء البيان: 616/9.

(2) التفسير الكبير: 32/ 185.

العلم بشرف المعلوم، وهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع، ولهذا سمَّى أبو حنيفة – رحمه الله – ما قاله وجمعه في أوراق من أصول الدين (الفقه الأكبر)، وحاجة العباد إليه فوق كل حاجة، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة؛ لأنه حياة للقلوب، ولا نعيم ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون مع ذلك أحب إليه مما سواه، ويكون سعيها إليه فيما يقربها إليه دون غيره من سائر خلقه ».(1)

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية: 1/ 6، وقد أشار إلى مثل هذا المعنى الزمخشري في خاتمة تفسيره لسورة الإخلاص، انظر: 229/4.

المبحث الثاني: التفسير البلاغي لسورة الفلق

سورة الفلق: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾

بعد أن ذكر سبحانه أمر الإلهية في سورة الإخلاص، وما تفرع عنه من تعداد أوصافه، وما تفرد به شرع بعد ذلك في بيان ما يُستعاذ بالله منه من أنواع الشرور كلها، ظاهرها وباطنها، جليلها وخفيها، وذلك ما تضمنه المعوذتان: سورة الفلق، وسورة الناس، وسأرجئ الحديث عن حكمة الترتيب بين السور الثلاث إلى آخر الدراسة بعد الانتهاء من الحديث عن بلاغة هذه السور على حدة، وقد ذكر سيد قطب في مفتتح حديثه عن هذه السورة والتي بعدها مضمون هاتين السورتين، مبيناً فضل الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة بهاتين السورتين، وما أكثر فضائله سبحانه على الناس أجمعين، يقول: «هذه السورة والتي بعدها توجيه من الله سبحانه وتعالى لنبيه ابتداء وللمؤمنين من بعده جميعاً للعياذ بكنفه، واللياذ بحماه من كل مخوف خافٍ وظاهر، مجهول ومعلوم، على وجه الإجمال، وعلى وجه التفصيل، وكأنما يفتح الله – سبحانه – لهم حماه، ويبسط لهم كنفه، ويقول لهم في مودة وعطف: تعالوا إلى هنا، تعالوا إلى الحمى، تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمئنون فيه، تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعاف، وأن لكم أعداء، وأن حولكم مخاوف، وهنا هنا الأمن والطمأنينة والسلام». (1)

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ يأمر – سبحانه – نبيه محمداً ε في مفتتح السورة بالاستعاذة به في قوله: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وفي تصدير الآية

---

(1) في ظلال القرآن: 4006/5.

بفعل الأمر (قل) إشارة إلى عِظم هذا الأمر وأهميته، وإشارة كذلك إلى عِظم ما سيأتي بعدها، كما أن في ذلك إشارة إلى «المحافظة على هذه الألفاظ؛ لأنها هي التي عينها الله للنبي؛ ليتعوذ بها، فإجابتها موجودة».(1)

والأمر فيها للنبي ε ولأمته، يدل على ذلك أمره ε أمته بأن تتعوذ بهذه السورة، مخبراً في الوقت نفسه أنه ما تعوذ المتعوذون بمثلها، وفي ذلك إشارة ظاهرة إلى حاجة الناس جميعاً إلى الاعتصام به – سبحانه – والالتجاء إليه، ومن هنا جاء هذا الفعل (قل) في هذا السياق إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه.

ومعنى هذا الأمر: أي قل يا محمد «لكل من يبلغه القول من جميع الخلائق تعليماً لهم وأمراً فإنهم كلهم مربوبون مقهورون لا نجاة لهم في شيء من الضرر إلا بعصمته – سبحانه – فعلى كل منهم أن يفزع أول ما تصيبه المصيبة إلى مولاه القادر على كشفها؛ تصحيحاً لتوكله، فإنه يرتقي بذلك إلى حال الرضا بمرِّ القضاء، ولا يأخذ في الاعتماد على جلادته وتدبيره بحوله وقوته؛ فإنه يشتد أسفه، ولا يرد عنه شيئاً». (2)

كما أن الأمر بالاستعاذة بالله – عز وجل – إشارة من إلى الحدِّ من كِبر الإنسان، ومن عجبه بنفسه، ومن غروره بذاته، فقد يحول الكبر والطغيان بعض النفوس دون طلب الإعانة والنصرة من غيرهم، وإن كانوا في حالة هم أشد حاجة إليها، فأراد الله – عز وجل – من خلال هذا الأمر أن يلفت الإنسان إلى ضعفه،وأنه لا يملك لنفسه حولاً ولا قوة، فضلاً أن يملك ذلك للآخرين، ومن

---

(1) التحرير والتنوير:625/30.

(2) نظم الدرر: 22 / 407.

هنا جاء الأمر بالاستعانة به – عز وجل(1).

ومعنى أعوذ: أي ألتجئ وأعتصم وأتحرز وألوذ (2)، وقد ذكر المفسرون كثيراً من المعاني والدلالات لمعنى الاستعاذة وفوائدها، وليس هذا مقاماً لذكرها، بيد أني أشير هنا إلى أن ابن القيم ذكر كلاماً نفيساً وطويلاً في معنى الاستعاذة وفوائدها يحسُن الوقوف عند ما ذكر، وإنعام النظر فيه تأملاً وتدبراً(3)، وسأذكر بعض كلامه؛ لنفاسته، ولشدة تعلقه وارتباطه بما نحن فيه، يقول: «اعلم أن لفظة (عاذ) وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة، وحقيقة معناها: الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمى المستعاذ به: مَعاذاً، كما يسمى ملجأ ووَزَراً، وفي أصله قولان: أحدهما: أنه مأخوذ من الستر، والثاني: أنه مأخوذ من لزوم المجاورة، والقولان حق، والاستعاذة تنتظمهما معاً، فإن المستعيذ مستتر بمعاذه، مستمسك به، معتصم به، قد استمسك قلبه به ولزمه، كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفاً، وقصده به، فهرب منه فعرض له أبوه في طريق هربه، فإنه يلقي نفسه عليه، ويستمسك به أعظم استمساك، فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه وفرَّ إليه، وألقى نفسه بين يديه واعتصم به، والتجأ إليه، وبعد فمعنى الاستعاذة القائم بقلب المؤمن وراء هذه العبارات، وإنما هو تمثيل وإشارة وتفهيم، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدي الرب، والافتقار إليه، والتذلل بين يديه أمر لا تحيط به العبارة». (4)

وفي الإشارة إلى الربوبية في هذا السياق في قوله (برب) كثير من الدلالات

---

(1) انظر: على طريق التفسير البياني: 25/1

(2) انظر: التفسير الكبير: 189/32،

(3) انظر: التفسير القيم: 538.

(4) انظر: المصدر السابق: 538.

والإيحاءات المراد تحقيقها وبيانها، والتذكير بها؛ لتكون حاضرة في نفس من يستعيذ بمولاه، قائمة في قلبه حال التجائه به، وفي هذا دلالة على أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين الربوبية والاستعاذة، تتجلى هذه العلاقة، وتتبين تلك الصلة من دلالات لفظة (الرب) ومعناها، وذلك أن الرب هو السيد المالك القائم على أمور عباده، فهو الخبير بما يصلح هذه النفوس، وبما يهذبها، وفي ذلك إشارة إلى أن هذه الاستعاذة من الأمور التي يريد الرب أن يربي عباده عليها، ويلتزموا بها، وفي هذا دلالة على أن تربيته – سبحانه – لعباده وإحسانه بهم دائم لا ينقطع عنهم، كما أنهم مفتقرون إليه، لا غنى لهم عنه، فحاجتهم إليه دائمة، وفقرهم إليه ظاهر.

وقد تضمنت هذه الإضافة في قوله (برب الفلق) كثيراً من الأسرار البلاغية، والنكت البيانية، ولن تتجلى هذه الأسرار، وتلك النكت إلا من خلال الإبانة عن معنى (الفلق)، والمراد بالفلق: الصبح؛ لأن الليل يُفلق عنه ويُفرق، وهو قول جمهور المفسرين (1)، يدل على ذلك قوله – تعالى – ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ...﴾ (2)، كما تدل عليه لغة العرب كذلك، ومن ذلك قولهم في الأمثال: هو أبين من فلق الصبح، وفرق الصبح(3).

إذن فهذا المراد من لفظة الفلق، وذا معناها، ولكن السؤال هنا هو ما سرُّ ذكر الصباح في مقام الأمر بالاستعاذة؟ وما سرُّ هذه الإضافة في هذا المقام؟، ذكر المفسرون كثيراً من النكت والأسرار، وكثيراً من الحكم البالغات في إيراد لفظة (الفلق) في هذا السياق، فمن ذلك: أن مراد العائذ وغايته من الاستعاذة بالله – عز وجل – هي أن يغير الله حاله، وأن يرفع ما حلَّ به من

---

(1) انظر: جامع البيان: 748/12،و: معالم التنْزيل: 547/4، و: الكشاف: 300/4.

(2) الأنعام: 96.

(3) انظر: مجمع الأمثال: 208/1.

ضرر وبلاء، وأن يغير حاله من الخوف إلى الأمن، ومن الحزن إلى الفرح، وأن يُخلِّصه من الهمّ والغمّ، وفي انبثاق الصبح، وظهور تباشيره دلالة على هذا المعنى، وإشارة إليه من خلال زوال ظلمة الليل، وانقشاع رهبته، وذهاب وحشته وسكونه، فالقادر على تغيير هذه الأحوال، وتبديلها من حال إلى حال قادر كذلك على تغيير حال المستعيذ به من شر حال إلى خير حال ومآل (1)، فإذا كان – سبحانه – هو القادر على إزالة الوحشة، وظلمة الليل فهو القادر على تغيير الأحوال، وتقليب الأطوار، وإزالة الهم، ورفع الغم، وكشف الضر، ورفع البلاء، فيشفي المريض، ويغني الفقير، ويذهب عن القلب الهموم والغموم، ويدفع عن الإنسان البأساء والضراء، فهو القادر – سبحانه – على أن يدفع عن العائذ به الملتجئ إليه كل ما يخافه ويخشاه، وكل ما يغتم منه ويهتم، ولذا فإن طلوع الصبح، وظهور تباشيره كالكناية على مجيء الفرح، وإقبال المرح والسرور، فكما أن الإنسان يظل ليله كله متلهفاً منتظراً طلوع الصبح فكذلك الخائف الوجل يكون دائماً مترقباً متشوقاً طلوع صباح النجاة. (2)

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ **ثم ذكر – سبحانه وتعالى – بعد ذلك المستعاذ منه في قوله** ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾**، و(ما) هنا تفيد العموم، فيدخل في ذلك جميع من يوجد فيه شر أياً كان ذلك الشر قلَّ أو كثر، ولذا ففي الآية إيجاز قِصر، فقد حوت بألفاظها القصيرة كل مخلوق له شر من الإنس والجن والشيطان، بل يتعدى ذلك ليشمل أيضاً كل ما يكون منه ضرر وشر من الحشرات والهوام والقوارص والزواحف وغيرها، تتجلى بلاغة هذا الإيجاز أن فيه دلالة ظاهرة على عظمة هذا الرب، وقدرته التامة في كفاية من يلوذ به، ويعتصم بحماه فيكفيه**

---

(1) انظر: الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية: 440/8.

(2) انظر: فتح القدير: 520/5.

الشرور كلها صغيرها وكبيرها.

وهناك دلالة أخرى لمجيء (ما) هنا في هذا السياق دون (من)، وهي الإشارة إلى غلبة صدور الشر من غير العقلاء وكثرته، ومن هنا جاءت (ما) لتدل على هذا المعنى، وتشير إليه؛ لأن العبرة بالأغلب الأكثر، والله أعلم بأسرار كتابه(1).

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ **وبعد أن أمر – سبحانه – نبيه محمداً** ε **بالاستعاذة من الشرور كلها على وجه الإجمال شرع بعد ذلك في تخصيص هذا الشر وبيانه، فذكر بعضاً من أنواعه على وجه الخصوص فقال:** ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾، **والغاسق هو الليل، وشدة سواده، يقال: غسق الليل وأغسق إذا أظلم، وصار ظلامه دامساً، والوقوب: الدخول، والمراد به: دخول ظلام الليل في كل شيء، حتى يصير سواده شديداً، وظلمته حالكة، فلا ترى إلاَّ السواد، سواداً قد دخل بعضه في بعض.** (2)

وفي قوله: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ **إطناب بطريق عطف الخاص على العام، فقد ذُكر في الآية السابقة الشر على وجه العموم في قوله:** ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ **ثم عُطف عليه قوله:** ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ **وفي ذلك تخصيص لهذا الشر، وذكر جزء منه، وفي الإطناب بهذا الطريق إشارة إلى أن الخاص بحاجة إلى مزيد من الاستعاذة، ومزيد من التحرز منه والتحصن؛ لشديد ضرره، وعظيم خطره، ومن هنا جاء الأمر بالتعوذ من شر الليل، ولا غرو أن يُفرد الليل بالذكر، وأن يُخص بالاستعاذة؛ ففيه «تخرج السباع من آجامها، والهوام**

---

(1) انظر: التفسير الكبير: 32 /193.

(2) انظر: معالم التنْزيل: 547/5، و: الكشاف: 300/4.

من مكانها، ويهجم السارق والمكابر، ويقع الحريق، ويقل فيه الغوث». (1)

وفي التقييد في قوله: ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ مزيد من الأمر من الاستعاذة منه التحرز، والتيقظ فيه، لأنه – والحالة هذه – مظنة الهلاك والعطب، والأخذ على غرة؛ لأنه وقت تنتشر فيه الشياطين، وتكثر فيه الشرور، وتغلب فيه الغفلة على كثير من الناس، وينشط فيه أهل الشر والفساد، فتكثر فيه الغفلة، فيصعب معه التحرز، يدل على ذلك قول العرب في أمثالها: الليل أخفى للويل. (2)

وفي إضافة الشر إلى الغاسق مجاز عقلي، من إضافة الشيء إلى زمانه، فالعلاقة هنا زمانية، كما يقال: فلان نهاره صائم، وليله قائم، فقد أُضيف الصيام إلى النهار؛ لكونه وقت الصيام، وكذلك إضافة القيام إلى الليل؛ لكونه أيضاً وقت القيام وزمانه، وكذلك إضافة الشر إلى الليل في هذه الآية، وتتجلى بلاغة هذا المجاز في إشارته إلى عظم ما يحدث في الليل من الشرور، فكم كان هذا الليل وما زال مسرحاً لكثير من الأحداث والأهوال، فقد اتخذه الأشرار مطية لتحقيق مآربهم الفاسدة، وأغراضهم الخبيثة تحت جناح الليل وستاره، مستغلين في ذلك غفلة الناس، وخلودهم إلى مضاجعهم، فضلاً عما يكون فيه من انتشار للهوام والحيوانات المؤذية، ناهيك عن الشياطين التي تتربص بالإنسان، وتتحين منه غفلة؛ لتتمكن منه، وتنال منه مبتغاها، ومن هنا جاء المجاز العقلي في هذا السياق إشارة إلى هذه المعاني كلها، ودلالة عليها.

فاتضح من خلال هذا المجاز أن الشر ليس لأمر كامن في الليل، بل بسبب ما يكون فيه، وبسبب ما يحدث من الناس في هذا الوقت من الشر والشرور، وأما ذات الليل فهو من ذلك براء، يدل على ذلك أن هذا الليل

---

(1) التفسير الكبير: 32 /195.

(2) انظر: الكشاف: 301/4

«لأهل الخير رحمة ونعمة، كما قال – تعالى: ﴿ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ (1)، وتردد ذكر الليل في غير آية من كتاب الله معدوداً من نعم الله على عباده، وهو شقيق النهار، ثم إنه هو من حيث هو لباس وستر عن الأعين، يتمكن فيه لأهل الشر ما لا يتمكن في نهارهم، فيستحكم فيه شرهم عند امتداد ظلمته؛ لأمنهم من الناس في ذلك، فتبين أنه ليس شراً بما هو ليل؛ إذ الشر فيه وعنده لا به، ولا يتمكن مطلوب ذوي الشر إلا في ظلمته، فنُسب الشر إليه بهذا الوجه، والإضافة في لسان العرب تكون بأدنى ملابسة، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾(2)، والليل والنهار لا يمكران، إنما يكون المكر فيهما». (3)

ولا يخفى دلالة اختيار لفظة "الوقوب" في هذا المقام؛ وذلك أن فيها تناغماً مع لفظة "الغسق" دون لفظة "الدخول"، وبيان ذلك أنها « أحسن استعارة، وأجمل تعبيراً؛ ذلك أن الليل كأنه ينصب ظلامه ويجتمع في نقرة، كما يجتمع الماء فيها، فالعالَم كالنقرة يصب فيها الليل ظلامه، فلا يترك منها شيئاً، والانصباب يكون لمادة من فوق بخلاف الدخول، فإنه لا يشترط فيه ذلك، والليل إنما ينصب على الناس من فوق، كما ينصب الماء في النقرة». (4)

وهكذا توافر كل ما في هذه الآية – على قصرها – وتضافر في بيان شدة هذا الظلام، وبيان خطره، وعظيم ضرره على الإنسان، ومن هنا يتبين أهمية هذه الاستعاذة، وتتجلى – كذلك – حاجة الإنسان إلى رب يلوذ بحماه، ويعيش في كنفه؛ ليحميه من هذه الشرور كلها، ويدفع عنه هذه الأضرار بأنواعها، ولا حول

---

(1) القصص: 73

(2) سبأ: 33.

(3) ملاك التأويل: 965/2.

(4) على طريق التفسير البياني: 36/1.

لهذا الإنسان ولا قوة إلا بالاستعاذة بربه، والاعتصام به، واللجوء إليه، والانطراح بين يديه؛ ليدفع عنه شر كل ذي شر، ومن هنا جاء الأمر بالمواظبة على الأدعية والأذكار في آخر النهار لحظة إقبال الليل، وإدبار النهار؛ ليكون مُحصَّناً بحمى ربه ومولاه؛ ليحميه ويكفيه شر الغاسق إذا وقب.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ وبعد أن ذكر سبحانه الليل وشدته، وما يكون فيه من الشرور والأخطار عطف عليه أمراً آخر وهو الأمر بالاستعاذة به من شر النفاثات في العقد، وذلك في قوله ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ وهن السواحر اللاتي يقمن بالنفث في العقد عند إرادة السحر، والقيام به(1).

وهؤلاء الساحرات اللاتي ينفثن في العقد يدخلن في عموم الشر في قوله ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، فهن وعملهن من جملة الشر المستعاذ به في صدر هذه السورة، ولكن إفرادهن بالذكر هنا، والأمر بالاستعاذة من عملهن من باب عطف الخاص على العام، وفي ذلك دلالة على شدة شرّ النفاثات، وعظيم خطرهن على المسحور، فلشدة هذا العمل وخطورته، وأثره البالغ في المسحور خُص بالذكر، وأفرد بالاستعاذة منه؛ ليكون الإنسان على بينة منه، وليكون على صلة وثيقة بربه بالاستعاذة به، واللجوء إليه.

كما أن إفرادهن بالذكر والتنصيص عليه توافق مع سبب نزول هذه السورة، وإيماء إلى سحر لبيد لرسول الله ε، فكأن الغرض الرئيس من هذه السورة هو الأمر بالاستعاذة من هؤلاء السحرة وعملهم، ولذا فقد ناسب أن تُذكر الاستعاذة منهم على وجه الخصوص.

جاءت الاستعاذة هنا من شر النفاثات، وهن الساحرات، ومعلوم أن السحر يكون من الرجال والنساء، وليس هو أمراً خاصاً بالنساء وحدهن، بيد أن في مجيء هذه اللفظة (النفاثات) مؤنثة إشارة إلى أن الغالب والسواد الأعظم من الذي يتعاطون السحر ويقومون به هن النساء؛ وذلك لضعف دينهن، ولشدة مكرهن، ولغلبة الغيرة عليهن، فيدفعهن ذلك إلى السحر وغيره؛ بغية الضرر

---

(1) انظر: جامع البيان: 750/12.

بالآخر أياً كان، وهذا لا يعني إعفاء الرجال من ذلك، ولذا فإن المراد من هذه الآية «السحرة قطعاً سواء كان النفث من النساء كما هو ظاهر اللفظ، أو من الرجال على معنى الجماعات، أو النفوس الشريرة فتشمل النوعين»(1)

والتعريف في (النفاثات) للعهد، وفيه إشارة إلى أن النفث ومن يقوم به معهود معلوم لدى المخاطب، وفي ذلك دلالة على أن هذا السحر موجود ومنتشر لدى العرب، تلجأ إليه النفوس المريضة والشريرة، ومن هنا جاءت الاستعاذة منه في هذه السورة، إذ لا ملجأ منه إلا بالاستعاذة به سبحانه، والاعتصام بحماه.

وفي ذكر النفاثات بعد الليل وشروره وعطفه عليه إشارة إلى مابين هذين الأمرين من الارتباط الوثيق، وذلك أن الليل هو الوقت الذي ينتظره السحرة، ويترقبون قدومه؛ ليقوموا فيه بإجراء سحرهم ونفثهم في العقد في جنح الظلام الدامس الذي لا يراهم فيه أحد، كما أن في الليل انتشاراً للجن والشياطين، وهم العون لهم، فبهم يستعينون على القيام بهذا السحر. (2)

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ **ثم ختم سبحانه وتعالى السورة بالأمر بالاستعاذة من الحسد في قوله** ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، **والمعنى أن الله سبحانه يأمر نبيه محمداً ε أن يستعيد من شر كل حاسد إذا حسد من غير تقييد أو تخصيص، بل هو عام ليشمل الحسد كله أياً كان نوعه، ومهما كان باعثه (3)؛ والحسد – كما هو معلوم – تمنى الحاسد زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود، ولذا فترى الحاسد يسعى إلى زوال هذه النعمة بما يقدر على ذلك**

---

(1) أضواء البيان: 638/9.

(2) انظر: التحرير والتنوير: 628/30.

(3) انظر: جامع البيان: 629/12.

من أسباب، ويسلك في ذلك كل مسلك، ومن هنا جاء الأمر بالاستعاذة من شره لإبطال كيده، ورد عمله وسعيه في نحره. (1)

وفي ذكر الحسد في هذه الآية مع ذكر السحر وعطفه عليه إشارة إلى ما بينهما من علاقة واقتران، فثمة ارتباط وثيق، وصلة متينة بين كل من السحر والحسد، فكلاهما يؤذي الطرف الآخر، ويؤثر فيه في خفاء، ففي هذين العملين إيقاع الضرر في الخفاء مع شدة الأثر والتأثير، كما أن هذين العملين منهي عنهما؛ لِما فيهما من الأذى والضرر (2)**، ومن هنا جاء الترتيب بينهما، وهذا العطف إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه.**

جاءت الاستعاذة من شر الحاسد في هذه الآية مقيدة بقوله ﴿ إِذَا حَسَدَ﴾، وفي هذا التقييد كثير من الدلالات والإيحاءات، وقد طفق العلماء يبينون حِكم هذا التقييد وأسراره، فذكروا في ذلك كلاماً نفيساً سأعرض لجملة من مقولاتهم في دلالات هذا التقييد وبلاغته، فقد تحدث الزمخشري عن معنى هذا القيد يقول في معنى ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ أي «إذا ظهر حسده، وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود؛ لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسده، بل هو الضار لنفسه؛ لاغتمامه بسرور غيره». (3)

كما ذكر ابن القيم كذلك كلاماً بليغاً في هذا القيد ودلالاته، يقول–رحمه الله –: « وتأمل تقييده – سبحانه – شر الحاسد بقوله﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكنه يخفيه، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما، ولا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك، ولا يعامل أخاه إلا بما يحب الله،

---

(1) انظر: تيسير الكريم المنان:4/ 474.

(2) انظر: أضواء البيان: 640/9.

(3) الكشاف: 307/4.

فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله، وقيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك لإخوة يوسف، لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعها، ولا يأتمر بها بل يعصيها طاعة لله، وخوفاً وحياء منه وإجلالاً له أن يكره نعمه على عباده، فيرى ذلك مخالفة لله وبغضاً لما يحب الله، ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمنى زيادة الخير له، بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسده ورتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسد المذموم، هذا كله تمنى الزوال (1)

وأكد هذا المعنى وكرره في موضع آخر يقول: «ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسداً إلاَّ إذا قام به الحسد كالضارب، والشاتم، والقاتل، ونحو ذلك، ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود لاهٍ عنه». (2)

ومن خلال ما تقدم تظهر بلاغات هذا التقييد ودلالاته، وتظهر منه كذلك الحِكم البالغات في الأمر بالاستعاذة من الحاسد إذا حسد، ومن هنا كان هذا الأمر جديراً بأن يخص بالأمر بالاستعاذة منه، وأن تختم به السورة، ليظل هذا الأمر حاضراً في الذهن، قائماً في النفس، وليظل المؤمن منه على حذر ويقظة، ولا منجى له من ذلك ولا ملتجأ إلا بالاعتصام بخالقه ومولاه، والاستعانة به والاستعاذة.

* * *

---

(1) التفسير القيم: 583.

(2) المصدر السابق: 573.

المبحث الثالث: التفسير البلاغي لسورة الناس

وثمة أمر آخر بالغ الأهمية، وبالغ الخطورة كلك ينبغي أن يكون المؤمن على يقظة منه وحذر، ذلكم هو عدوه الأول الأزلي الشيطان الرجيم، ومن هنا جاء إفراد ذكره في سورة خاصة به، كما أُفرد الأمر أيضاً بالاستعاذة منه، والتحصن والتحرز من شره ووسوسته، وقد ذُكر هذا الأمر في سورة الناس في قوله – تعالى – ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ (١) مَلِكِ ٱلنَّاسِ (٢) إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ (٣) مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ (٤) ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ (٥) مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ (٦) ﴾

تضمنت هذه السورة كثيراً من الدلالات المهمة، والمقاصد الجليلة التي إن أخذ بها المسلم نجا من أمر عظيم، ومن شر مستطيل، وأي ضرر أضر على المسلم من الشيطان الرجيم، الذي أقسم أن يغوي بني آدم، ويجعلهم يتنكبون الصراط المستقيم؟وهل ثمة أشد من هذا العدو المتربص، الذي يحيق بنا ويمكر صباح مساء، يريد أن يبعدنا عن ديننا، وأن يحول بيننا وبين ربنا، إلاَّ أنه لا يتقوى علينا إلاَّ إذا ابتعدنا عن الحمى، وهجرنا الصراط المستقيم، وغفلنا عن الذكر والقرآن، وإلا فنحن نأوي إلى ركن شديد، ونركن إلى رب قوي عزيز، هو بنا برٌّ رحيم، نلوذ بحماه، ونعتصم به، ونلجأ إليه، وهو لا يتركنا سدى، ولا يُسلمنا إلى عدونا، وإن من رحمته بنا أن أنزل علينا القرآن، وأن ذكر لنا هذا العدو، وشديد عداوته وبغضه لنا، وأرشدنا إلى كيفية الاستعاذة منه، والتحصن به – سبحانه – من شر هذا الشيطان وكيده.

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ **جاءت آيات هذه السورة على نظام بديع، ونسق عجيب في الأمر بهذه الاستعاذة، كما تضمنت كثيراً من الدلالات المهمة، والأسرار البلاغية تتجلى هذه النكت من خلال فعل الأمر (قل) والبدء**

به؛ ففيه دلالة على أهمية هذه الاستعاذة، والحث على المواظبة عليها؛ إذ لا غنى للمرء عن ربه ومولاه طرفة عين ولا أقل من ذلك، فكان لزاماً عليه الاستعاذة بهذا الرب، والالتجاء إليه، والعيش في كنفه وحماه؛ ليعتصم به من شر الشيطان وشركه؛ ليكون بمنأى من هذه الوسوسة التي تخطر على قلبه وعقله في كل آن، ومن هنا جاء الأمر بالاستعاذة في صدر هذه السورة.

وترغيباً في هذه الاستعاذة، والحث عليها ذكر – سبحانه – في معرض هذا الأمر أنه رب هؤلاء الناس وملكهم وإلههم، فإذا كان الأمر كذلك فلا غنى لهم عنه، وما أشد حاجتهم إليه، ولذا جاءت الاستعاذة به هنا، والأمر بها، دلالة على هذا المعنى، وإشارة إليه.

جاءت لفظة الرب في هذا السياق مضافة إلى الناس في قوله ﴿ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾**، مع أنه سبحانه رب كل شيء ومليكه، فما سبب تخصيص الناس في هذا المقام؟ لقد جاءت هذه الإضافة، وهذا التخصيص متناسباً مع ذكر الاستعاذة في هذه السورة، والأمر بها، وبيان ذلك: أن في هذه الإضافة شيئاً من التخصيص والتشريف للناس، وفيها كذلك حث لهم على الاستعاذة، والتمسك بها، كما أن فيها أمراً بالاستعاذة، والمواظبة عليها، فإذا كان هو رب هؤلاء الناس وملكهم وإلههم فلا غنى لهم عن الاستعاذة به، واللجوء إليه. وقد ذكر الزمخشري في تفسيره سبب هذه الإضافة وحكمتها قائلاً: «لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم، وهو إلههم ومعبودهم، كما يستغيث بعض الموالي إذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخدومهم ووالي أمرهم ».(1)**

---

(1) الكشاف: 302/4.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ تضمنت هاتان الآيتان إظهاراً في مقام الإضمار من خلال تكرار المضاف إليه في قوله ٱلنَّاسِ ﴿مَلِكِ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾، ولو جرى الكلام على مقتضى الظاهر لقيل: قل أعوذ برب الناس وملكهم وإلههم، فما سرّ الإظهار هنا؟ يتجلى السرُّ في ذلك حين نعلم – أولاً – العلاقة بين هذه الآيات الثلاث ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ مَلِكِ ٱلنَّاسِ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ فقد فُصل بين هذه الجمل الثلاث، وجاءت كل جملة مفصولة عن التي قبلها، وذلك أن بين هذه الجمل كمال الاتصال، فقد وقعت كل جملة من التي قبلها موقع عطف البيان، وبسبب هذا الاتصال استُغني عن دخول العاطف بينها.

ومن هنا جاء الإظهار في مقام الإضمار متمماً لهذا المعنى، ومظهراً له، وذلك أن فيه مزيداً من الكشف والتقرير، وفي هذا توافق وتمشٍّ مع طبيعة عطف البيان. (1) فضلاً عما في الإظهار من تشريف، ومزيد تكريم للناس من خلال التصريح بهم، وإعادة ذكرهم مرة بعد أخرى، فإن ذلك أدل على التكريم، وأصرح في التشريف من ذكرهم مرة واحدة، وإعادة ذكرهم من خلال الضمير، والله أعلم بأسرار كتابه.

وثمة وقفة مع هذه الأوصاف التي ذكرها – سبحانه وتعالى – عن نفسه في قوله: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ مَلِكِ ٱلنَّاسِ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾، فما سرُّ ذكرها في هذا السياق في معرض الأمر بالاستعاذة به؟ وما السرُّ كذلك في ترتب هذه الأوصاف وتقديم بعضها على بعض؟

قبل الإجابة عن هذه الأمور ينبغي أولاً بيان معنى كل صفة من هذه الصفات، وذكر دلالاتها، من خلال معناها، وبيان المراد بها ليتضح المقصود

---

(1) انظر: المصدر السابق: 302/4.

من ورودها في هذا السياق، كما يتضح منه كذلك سرُّ ترتب كل واحدة منها على الأخرى، ومجيئها في إثرها.

فأما قوله ﴿ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ **ففيه إشارة إلى أنه سبحانه هو سيدهم، ومالك أمرهم، المدبر لأمورهم كلها القائم على تربيتهم وإصلاحهم، فهو الذي يحفظهم ويدفع الأذى عنهم،ويحميهم من كل ضرر وشر؛ وأما قوله** ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ **فذلك إشارة إلى أنه سبحانه ملك الناس جميعاً، المتصرف فيهم، فحكمه فيهم نافذ، فله السلطان التام، والقدرة الكاملة، وهم عبيده ومماليكه؛ وأما قوله** ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ **ففيه إشارة إلى أنه سبحانه معبود هؤلاء الناس الذي له العبادة دون غيره، فهو إلههم الحق الذي لا إله لهم سواه، ولا معبود لهم غيره(1)**

ومن خلال هذه المعاني تتضح العلاقة بين هذه الأوصاف وبين الأمر بالاستعاذة به عز وجل، فإذا كان سبحانه وتعالى هو رب هؤلاء الناس وملكهم وإلههم فجدير بهم، بل هم مأمورون«ألاَّ يستعيذوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجأوا إلى غير حماه، فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم، ومتولي أمورهم جميعاً بربوبيته وملكه وإلهيته عليهم، فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل، ونزول عدوه به إلى ربه ومالكه وإلهه، فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة من أعدى الأعداء، وأعظمهم عداوة، وأشدهم ضرراً، وأبلغهم كيداً(2)

فهذا معنى هذه الأوصاف، وتلك دلالة إضافتها إلى الناس في هذا السياق في معرض الأمر بالاستعاذة به – سبحانه وتعالى – من الشيطان الرجيم. وأما ترتب هذه الأوصاف فيما بينها، وتقدم بعضها على بعض فقد

---

(1) انظر: جامع البيان: 752/12.

(2) التفسير القيم: 597.

استرعى هذا الأمر فكر كثير من المفسرين، فوقفوا عند دلالاته، وأمعنوا فيه النظر، وأشاروا إلى هذا الترتيب، وأسراره البلاغية، فقد ذكر الزمخشري سرَّ هذا الأمر وبيانه، يقول: «فإن قلت:ملك الناس، إله الناس ما هما من رب الناس؟ قلت: هما عطف بيان، كقولك سيرة أبي حفص عمر الفاروق، بيِّن بملك الناس، ثم زيد بياناً بإله الناس؛ لأنه قد يقال لغيره رب الناس، كقوله ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ... ﴾(1)**، وقد يقال ملك الناس، وأما إله الناس فخاص لا شركة فيه، فجُعل غاية للبيان».** (2)

وقد أشار الرازي كذلك إلى سرِّ هذا الترتيب، فنظر إليه من وجه آخر، يقول: «بدأ بذكر الرب، وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه، وهو من أوائل نعمه أن رباه، وأعطاه العقل فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك، وهو ملكه، فثنى بذكر الملك، ثم لما علم أن العبادة لازمة له، واجبة عليه وعرف أنه معبوده، مستحق لتلك العبادة، عرف أنه إله فلهذا ختم به». (3)

بيد أن أسرار هذا الترتيب لهذه الأوصاف لا تنتهي، ولا تقف عند هذه الغاية، وتلك النكت، بل تظل تفيض بأسرارها، وتعدد دلالاتها لمن ينعم النظر فيها، ويقبل عليها إقبال تأمل وتدبر، ولذا فقد ذكر ابن القيم – رحمه الله – سرّاً آخر لهذا الترتيب، يقول: «قدم الربوبية؛ لعمومها وشمولها لكل مربوب، وأخر الإلهية؛ لخصوصها؛ لأنه – سبحانه – إنما هو إله مَنْ عبده ووحَّده، واتخذه دون غيره إلهاً، فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه، وإن كان في الحقيقة لا إله له سواه، ولكن المشرك ترك إلهه الحق، واتخذ إلهاً غيره باطلاً، ووسَّط

---

(1) التوبة: 31.

(2) الكشاف: 302/4.

(3) التفسير الكبير: 32/ 197.

صفة الملك بين الربوبية والإلهية؛ لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره، فهو المطاع إذا أمر، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها، فهو الرب الحق، الملك الحق، الإله الحق، خلقهم بربوبيته، وقهرهم بملكه، واستعبدهم بإلهيته، فتأمل هذه الجلالة، وهذه العظمة التي تضمنتها هذه الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام، وأحسن سياق »(1)، فسبحان من هذا كلامه، وزادنا له تأملاً وتدبراً.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ **المراد بالوسواس الخناس: الشيطان الرجيم، ولقد تمَّ ذكره في هذه الآيات وبيانه أتم بيان من خلال ذكر أوصافه، والعمل الذي يقوم به، ويُحْدِثه في صدور الناس، ففي قوله** ﴿ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ **إشارة إلى هذا الشيطان الرجيم، وإشارة – كذلك – إلى طبيعة عمله في قلوب الناس، فهو بين إقبال وإدبار، تغفل القلوب عن ذكر ربها فيقبل عليها الشيطان موسوساً، ثم تقبل على ربها، وتستعيذ به من شره فيخنس، ويرجع القهقرى، فالوسواس هو الشيطان، وقد سُمي بذلك؛ لكثرة وسوسته مبالغة في ذلك حتى صار كأنه هو الوسوسة نفسها، إشارة إلى أنه بلغ الغاية في ذلك، فهذا هو عمله، وتلك وظيفته، فهو في غاية الضراوة، وشدة العداوة. (2)**

والوسوسة هي الكلام الخفي، المختلط بغيره، وقد جاءت هذه التسمية نابعة من دلالاتها، ومن فعل الموسوس لها؛ وذلك أنها كلام يكرره الموسوس ويؤكده مرة بعد أخرى على من يلقيه في روعه، ففي تكرار اللفظ إشارة إلى تكرار معناها، وإشارة– كذلك– إلى كنهها وطبيعتها، فلما كان الموسوس يكرر وسوسته

---

(1) التفسير القيم: 598.

(2) انظر: إرشاد العقل السليم: 217/9، و: نظم الدرر: 430/22.

ويتابعها قيل له في ذلك: وسوس إشارة إلى ذلك العمل، ودلالة عليه، ونظير ذلك كثير في اللغة العربية، ومنه: زلزل، وقلقل، وكبكب الشيء، وغيرها.(1)

و(الخناس) صفة أخرى للشيطان الرجيم، مقابلة للصفة التي قبلها، ومضادة لها، وهي صيغة مبالغة على وزن فعَّال من خنس يخنس، بمعنى انقبض وتأخر، وتخفَّى واستتر، وأصل هذه المادة تدور حول هذا المعنى،، كما أن في المادة دلالة على الظهور بعد الخفاء، والرجوع إلى الوراء، ومن ذلك النجوم الخُنّس، سُميت بذلك؛ لأنها تخنس عن مجراها، وتختفي بضياء الشمس (2)، وتلتقي هذه المعاني، وتجتمع في الشيطان الرجيم؛ فهو الرجاع على عقبه بعد وسوسته في صدور الناس، كما أنه مستتر متوارٍ عن الأنظار والعيون. والمراد من ذلك: أن الشيطان وسواس خناس، فهو جاثم على قلب الإنسان، متربع عليه، ولكن ما إن يذكر الإنسان ربه، ويستعيذ به من شره إلا وتراه يخنس ويرجع على عقبيه، ويختفي بعد ظهور، ويضعف بعد قوة، ويدبر بعد إقبال.

وفي مجيء لفظة (الخناس) على وزن فعّال، بدلالتها على المبالغة في ذلك كثير من الدلالات والإشارات، وهذه الدلالات وإن تعددت إلا إنها تلتقي في بيان عمل الشيطان وشره، وفي الإشارة كذلك إلى خنوسه وتواريه حين يذكر العبد ربه، ويعتصم بحماه.

ومن الذين تحدثوا عن دلالات هذه اللفظة وأحسنوا: ابن القيم رحمه الله حيث قال: «وجيء من هذا الفعل بوزن (فعَّال) الذي للمبالغة دون الخانس والمنخس؛ إيذاناً بشدة هروبه، ورجوعه، وعظم نفوره عند ذكر الله، وأن ذلك دأبه وديدنه، لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحياناً، بل إذا ذُكر الله هرب وانخنس

---

(1) انظر: معاني القرآن: 381/5، للزجاج، و: التفسير القيم: 601

(2) انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة: خنس، و: التفسير القيم: 606.

وتأخر فإن ذكر الله هو مقمعته التي يُقمَع بها، كما يُقمَع المفسد الشرير بالمقامع التي تردعه من سياط وحديد وعصي ونحوها، فذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه كالسياط والمقامع التي تؤذي من يُضرب بها، ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلاً ضئيلاً مُضنى مما يعذبه المؤمن، ويقعمه به من ذكر الله وطاعته(1)

ومن الذين أنعموا النظر في دلالات هذه اللفظة وإيحاءاتها سيد قطب، يقول في " ظلاله" «وهناك لفتة ذات مغزى في وصف الوسواس بأنه (خناس) فهذه الصفة تدل من جهة على تخفيه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس، ولكنها من جهة أخرى توحي بضعفه أمام من يستيقظ لمكره، ويحمي مداخل صدره، فهو سواء كان من الجِنة أم كان من الناس إذا وُوجه خنس وعاد من حيث أتى، وقبع واختفى، وهذه اللفتة تقوي قلب المؤمن على مواجهة الوسواس فهو خناس ضعيف أمام عدة المؤمن القوي في المعركة، ولكنها من ناحية أخرى معركة طويلة لا تنتهي أبداً، فهو أبداً قابع خانس مترقب للغفلة، واليقظة مرة لا تغني عن اليقظات، الحرب سجال إلى يوم القيامة». (2)

كما أن في مجيء هذه اللفظة – بصيغة المبالغة – إشارة إلى أن هذه الصفة صارت للشيطان اسماً يُعرف بها، فهي وإن كانت في أصلها فعلاً، بمعنى انخنس، إلاَّ أنه لكثرة خنوسه، وشدة رجوعه صارت اسماً له وعادة. (3)

وللدكتور فاضل السمرائي لفتة رائعة في دلالة هذه اللفظة، يقول – بعد أن ذكر كثيراً من دلالاتها-: «وقد أعلمنا ربنا أننا لا نستطيع أن نقضي على هذا العدو قضاء تاماً، وإنما قصارى ما نستطيع هو أن ندفع عنا شر وسوسته،

---

(1) التفسير القيم: 606.

(2) في ظلال القرآن: 4012/6.

(3) انظر: التحرير والتنوير: 634/30.

فإنه يخنس بذكر الله تعالى وطاعته، وهو لا يلبث أن يعاود وسوسته وكيده في أقرب فرصة سانحة، وفي كل لحظة غفلة عن ذكر الله، والاستعاذة به». (1)

---

(1) على طريق التفسير البياني: 53/1.

﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ في هذه الآية يبين – سبحانه – أثر هذا الخناس ومحل عمله في جسم الإنسان في قوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، وقد تمَّ بيان هذا الأمر وذكره بطريق الموصول؛ لغرض إبراز ما تضمنته صلة هذا الموصول، وفيه إشارة إلى أن هذا الأمر أشهر ما يُعرف به الشيطان، ويوصف به؛ وذلك لكثرة قيامه بذلك، واتصافه به، فمن طبيعة الشيطان ووصفه أنه يوسوس في صدور الناس، يدل على ذلك أيضاً مجيء لفظة (يوسوس) فعلاً مضارعاً فمجيئها بهذه الصيغة دلالة على التجدد والاستمرار، فهذا هو عمله، وذلك دأبه وديدنه لا يفتأ عن ذلك، لا يكل عن هذه الوسوسة ولا يمل، ولا يحول عنها ولا يزول، فهي وسوسة متجددة على مرّ الأوقات والأزمان، ومستمرة باستمرار وجود هذه الخليقة على وجه الأرض، فقد كانت ولا زالت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد آلى الشيطان على نفسه وأقسم أمام خالقه ومولاه أن تستمر العداوة بينه وبين بني آدم، فقد أخذ العهد على نفسه ألا يتوقف عن هذه الوسوسة، وعن تلك الغواية، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِىٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ* إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾.(1)

ومن هنا جاءت لفظة (يوسوس) فعلاً مضارعاً دلالة على تجدد هذه الوسوسة واستمرارها إلى قيام الساعة، وفي ذلك توافق مع طبيعة عمل الشيطان،وتوافق – كذلك – مع القسم الذي قطع به على نفسه.

وقد ذكر – سبحانه – محلَّ الوسوسة ومكانها فبين أنها في صدور الناس، وفي ذكر الصدور هنا دون القلوب لفتة مهمة، ومغزى يُراد لفت العقول

---

(1) سورة:ص: 79 - 83.

إليها، والانتباه لها؛ لنكون في ذلك على يقظة وبصيرة من أمرها، وبيان ذلك: أن في ذكر الصدور هنا تصويراً دقيقاً لهذه الوسوسة، وبياناً لمدى عمقها،وشدة أثرها على الناس، فهذه الوسوسة وإن كان أصلها في القلوب، إلاَّ أنها لشدة وقعها، وكثرة ورودها على القلوب، ولتشرب النفوس الشريرة والكافرة لها، لهذا كله ضاق القلب بها، ولم يعد فيه متسع لهذه الوسوسة، ومن ثم صار الصدر كله محلاً لهذه الوسوسة، ومقراً لها، وفي ذلك إشارة من طرف خفي إلى شدة هذه الوسوسة، وعظم أثرها، وخطرها على الناس؛ وذلك أن الإنسان إذا تمادى بدفع الشيطان وشره، وضعف أمامه، ولم يستعذ منه بربه ومولاه فسيكون قلبه مرتعاً لهؤلاء الشياطين، ومحلاً يستقرون فيه، بل ولن يكفيهم هذا القلب، فسيضيق في تلقي هذه الوساوس، ومن ثم سيتخذون صدره محلاً وبديلاً.

هذا بخلاف قلب المؤمن العامر بذكر الله وحبه، فقلبه يفيض بالذكر، حتى يملأ عليه جوانحه كلها، فضلاً عن القلب، وقد دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ (1)، ففي ذكر الصدور هنا دون القلوب إشارة إلى هذا الاتساع، وذلك الانشراح أنه ملأ عليهم جوانحهم حتى فاض وملأ صدورهم كلها فضلاً عن قلوبهم، وذلك أدل على أثر الإسلام وعظمته، وقوته وعظيم نفعه على من انتسب إليه، ودخل فيه.

ولابن القيم كلام نفيس في بيان السرِّ في اختيار لفظة (الصدور) دون القلوب، في معرض حديثه عن وسوسة الشيطان ومحلها، يقول: « وتأمل السرَّ في قوله ﴿ يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ ولم يقل: في قلوبهم، والصدر هو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردت إليه، فتجتمع في الصدر، ثم تلج في

---

(1) الزمر: 22.

القلب، فهو بمنْزلة الدهليز له، ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر، ثم تتفرق على الجنود، فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته، فيلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب، فهو موسوس في الصدر، ووسوسته واصلة إلى القلب، ولهذا قال – تعالى – ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ... ﴾(1) ولم يقل: (فيه)؛ لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك، وأوصله إليه، فدخل في قلبه». (2)

وفي قوله ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ بيان للمراد من الناس في الآية التي قبلها، الذين يوسوس الشيطان في صدورهم، ومنه يُعلم أن الجن يُسمون أناساً، وأن ذلك ليس مقصوراً على الناس من بنى آدم، كما يُسمَّوْن رجالاً– أيضاً –؛ لورود ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ... ﴾. (3)

وفي ذكر الجن والإنس في هذه الآية إشارة إلى عظم وسوسة الشيطان، وعظم خطرها، وأنها تطول الجميع من الإنس والجن على حد سواء، ومن هنا جاء الأمر بالاستعاذة من الشيطان وشره، ولأمر ما أُفردت الاستعاذة منه في سورة خاصة بها، في بيان الأمر بها، وفي بيان شدة هذه الوسوسة، وعظيم خطرها على الإنس والجن معاً، وفي ذلك إشارة إلى عظم غواية الشيطان لابن آدم، ووسوسته له، التي لا تنقطع عنه متى ما غفل عن ذكر ربه، والاعتصام بحماه، وقد أشار الرازي في تفسيره إلى هذا الأمر مشيراً إلى السرِّ الكامن في إفراد هذه الاستعاذة في سورة خاصة بها، مبيناً الفرق في الوقت نفسه بين الاستعاذة الواردة في هذه السورة والاستعاذة الواردة في سورة الفلق، يقول:

---

(1) طه: 120.

(2) التفسير القيم: 612.

(3) الجن: 6.

«واعلم أن في هذه السورة لطيفة أخرى، وهي أن المستعاذ به في السورة الأولى مذكور بصيغة واحدة، وهي أنه رب الفلق، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات، وهي الغاسق، والنفاثات، والحاسد، وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بثلاث صفات، وهي: الرب، والملك، والإله، والمستعاذ منه آفة واحدة، وهي الوسوسة، والفرق بين الموضعين: أن الثناء يجب أن يقدر بقدر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين، وهذا تنبيه على أن مضرة الدين وإن قلت أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت، والله سبحانه وتعالى أعلم ». (1)

ومن اللطائف القرآنية مجيء حرف "السين" في هذه السورة، وتكراره عشر مرات، ولهذا الحرف –بدلالته على الصفير– وتكراره دلالة يحسن الإشارة إليها؛ لارتباطها بوسوسة الشيطان المأمور الاستعاذة منها في هذه السورة، ففي ورود هذا الحرف وتكراره إشارة إلى الوسوسة وصوتها، نحس بذلك ونشعر به من خلال قراءة السورة كاملة، فقد أشعرنا الحرف – بجرسه – بالوسوسة، وقد أدرك هذا الملحظ، وأشار إليه سيد قطب في معرض حديثه عن بلاغة القرآن في دقة تعبيره، وتنوعه في الدلالة على المعنى، يقول: « ونوع آخر من تصوير الألفاظ بجرسها يبدو في سورة "الناس"، اقرأها متوالية تجد صوتك يُحدث وسوسة كاملة تناسب جو السورة، وجو وسوسة (الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس) ». (2)

---

(1) التفسير الكبير: 32 / 199.

(2) التصوير الفني في القرآن الكريم: 94.

المبحث الرابع: الحكم والأسرار في ختم القرآن الكريم بسورة الإخلاص والمعوذتين

يحسن قبل ذكر هذه الأسرار، وتلك الحكم الإشارة إلى أمرين مهمين لهما ارتباط بهذا الحكم والأسرار،

الأمر الأول: أن ترتيب السور في القرآن الكريم توقيفي، موقوف على كتاب الله، وسنة رسولهε، فليس للاجتهاد فيه محل ولا نصيب، فهو ترتيب صادر من رب حكيم، يضع الأمور في نصابها، وقد أشار إلى هذه الحقيقة وقررها الزركشي في سياق حديثه عن وضع السور في المصحف، يقول: ((لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تُطلِع على أنه توقيفي صادر عن حكيم))(1)، ولأن هذا الأمر توقيفي فقد تضمن كثيراً من الحكم والأسرار، ومن هنا جاء النظر في مناسبة هذه السور فيما بينها، وهو مبحث شريف لا يقل عن بلاغة النظم، ووجه ارتباط الآيات بعضها ببعض في السورة الواحدة، وقد درج عن بيان تلك المناسبات بعض المفسرين، وكانوا يطلبونها بين آخر السورة، وأول السورة التي تليها، أو بين أول هذه السورة، وجملة السورة السابقة في بعض الأحيان(2).

ولذا فقد كان هذا الأمر حاضراً في عقول العلماء والمفسرين والمشتغلين بعلوم القرآن، وقد ذكروا في ذلك فرائد وروائع تشهد للقرآن الكريم بالروعة والإعجاز، كما تشهد في الوقت نفسه بالجهد الذي بذله العلماء في القرآن الكريم، فقد أفرغوا فيه الطاقة، وبذلوا فيه وسعهم وجهدهم خدمة لهذا الكتاب العزيز، وتقرباً لمن أنزل هذا القرآن وتكلم به، واستجابة لقوله ﴿

---

(1) البرهان في علوم القرآن:260/1.

(2) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه: 138، د. عدنان زرزور.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ... ﴾(1)، ولقوله ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾. (2)

الأمر الثاني: أن ترتب السور بعضها على بعض، ومجيء كل سورة إثر الأخرى وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وقد أشار إلى هذه الحقيقة وقررها السيوطي، وأشاد بها بل وعدّه وجهاً من وجوه إعجاز القرآن، فقد ذكر وجوه إعجاز القرآن الكريم، وبيّن أن الرابع منها هو: مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، وقد ذكر منْزلة هذا العلم، والعلماء الذي كتبوا فيه ومؤلفاتهم. (3)

ومن هؤلاء العلماء: أحمد بن الزبير الثقفي، وكتابه "البرهان في تناسب سور القرآن"، وفي العنوان دلالة على مضمون هذا الكتاب، وإشارة واضحة إلى العلاقة بين سور القرآن الكريم، وارتباط كل سورة بسابقتها ولاحقتها.

فإذا تبين هذا وتقرر فيقيناً أن ثمة حكماً وأسراراً في ختم القرآن الكريم بهذه السور تتجلى هذه الحكم بإنعام النظر في السور، وفي إمعان النظر في تأمل مقاصد القرآن الكريم وحِكمه، وقد اقتضت حكمته – سبحانه – أن تكون سورة الإخلاص والمعوذتين بهذا الموضع، وأن يُختم بهن القرآن الكريم، وفي ذلك حكم بالغة، وأسرار بليغة، فكأن في ختم القرآن بسورة الإخلاص عطف آخر القرآن على أوله، وربط آخره بأوله، وبيان ذلك أن في الفاتحة – وقد افُتتح القرآن بها – بياناً لكثير من أوصاف الله تعالى، وذكراً لها، فهو الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، المنفرد بالعبادة والاستعانة دون سواه، ومن ثم

---

(1) محمد: 24.

(2) سورة:ص: 29.

(3) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن: 43/1.

جاءت سورة الإخلاص متممة لهذه الأوصاف، بذكر صفات اختص بها دون سواه، وانفرد بها عن العالمين، وفي ذلك إشارة إلى ارتباط سور القرآن بعضها ببعض، وإن تباعدت هذه السور في مكانها في القرآن الكريم، وإشارة – كذلك – إلى ترتب هذه السور بعضها على بعض، وفي ذلك إشارة إلى وحدة القرآن الكريم، وإلى وحدة أهدافه وموضوعاته، ووحدة غاياته، ووحدة مصدره كذلك.

ومن حكم مجيء سورة "الإخلاص" في هذا الموضع أن فيها إشارة إلى الختام، وعودة الناس لربهم، وأنهم مفتقرون إليه، محتاجون له، فهو الصمد الفرد الأحد، وقد أشار إلى هذه الحكمة صاحب كتاب "البرهان في تناسب سور القرآن"، يقول: «ولما انقضى مقصود الكتاب العزيز بجملته عاد الأمر إلى ما كان، وأشعر العالم بحالهم من يردهم على حين...، فوجودهم منه، وبقاؤهم به، لا يفتقر إلى أحد، ولا يحتاج إلى معين». (1)

كما أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين الفاتحة والمعوذتين، وذلك من خلال فضل هذه السور، ومنْزلة كل واحدة منها، فسورة الفاتحة مما يرقي به الإنسان نفسه، فهي الشافية والكافية، وبها يعتصم الإنسان من الشرور كلها، ومن الأمراض والآفات بأنواعها، وكذلك المعوذتان فيهما الحصن والالتجاء من الشرور كلها، ومن هنا يظهر الارتباط الوثيق بين هذه السور، وقد أشار – عليه الصلاة والسلام – إلى هذا المعنى، وألمح إليه في قوله في الفاتحة (ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها) (2)**، وقال في المعوذتين: (ألم تر آيات أُنزلت هذه الليلة لم يُر مثلهن قط** ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ، و قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ

---

(1) وقد نقل ذلك عنه السيوطي في كتابه معترك الأقران: 246/1.

(2) الموطأ: 134/1، كتاب الصلاة، باب: ما جاء في أم القرآن.

ٱلنَّاسِ﴾.(1)

وهكذا اجتمع حسن الافتتاح وحسن الختام من خلال هذه السور، وقد كان منبع هذا الحسن فضائل هذه السور، وعظيم أثرها ونفعها على من قرأها وتدبرها، ومن هنا جاء الأمر بقراءتها والمواظبة عليها.

وأما ما يتعلق بالمعوذتين فختم القرآن بهما لحِكم بالغة كذلك، وفي مجيئها في آخر المصحف إشارة إلى أن القرآن الكريم من أكبر النعم التي أنعم الله بها على أمة الإسلام، فهي نعمة عظمى، ومنحة كبرى، فقد امتن سبحانه على هذه الأمة بالقرآن الكريم، كما قال سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(2)، وهو – سبحانه – لا يمتن إلا بأمر عظيم، وكذلك القرآن في المكانة والمنزلة، ولذا فهو من أجل النعم وأكبرها لهذه الأمة، وحدوث النعم وتجددها مظنة الحسد،ومن هنا خُتم القرآن الكريم بما يطفئ هذا الحسد، بل وبما يجتث أصوله من القلوب، وذلك بالاستعاذة بالله عز وجل، والاستعانة به، واللجوء إليه، والاعتصام بحماه(3).

وثمة حكمة أخرى في ختم القرآن بالمعوذتين، وهو أن القارئ للقرآن الكريم مأمور بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند إرادة القراءة، وذلك في قوله تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(4)،فلما

---

(1) صحيح مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة المعوذتين، رقم الحديث: 1348.

(2) العنكبوت: 51.

(3) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن: 60/1.

(4) النحل: 98.

كان الأمر كذلك خُتم القرآن بالأمر بالاستعاذة، والحث عليها، وهكذا تكون الاستعاذة موجودة في طرفي الابتداء والانتهاء من القرآن الكريم.

وقد لاحظ ابن القيم هذا المعنى، وأشار إليه في بيانه لحكمة ختم القرآن بسورة الناس، يقول: «القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولا فأولا، فكلما أحس بنبات الخير من القلب سعى في إفساده وإحراقه فأُمر أن يستعيذ بالله – عز وجل – منه؛ لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن... وكأن من قال أن الاستعاذة بعد القراءة لاحظ هذا المعنى، وهو لعمر الله مَلْحَظ حيد». (1)

وفي ذلك دلالة على أهمية هذه الاستعاذة، وجليل نفعها على قارئ القرآن الكريم، وليكون بهذه الاستعاذة محفوظاً بحفظ الله له، كيف لا وهو لم ينقطع عن هذه الاستعاذة في مفتتح قراءته للقرآن الكريم وفي نهاية قراءته وختمه للقرآن الكريم. والله أعلم بأسرار كتابه. (2)

* * *

---

(1) إغاثة اللهفان: 110/1.

(2) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن: 60/1.

الخاتمة

وبعد: فهاهي نهاية المطاف، وخاتمة المشوار لهذه المعايشة المباركة لهذه السور الفاضلة التي سعدت بصحبتها، والعيش في رحابها؛ للنظر في أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية، وفيما يلي أبرز النتائج التي أمكن الاهتداء إليها، والخروج بها:

أولاً: أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين هذه السور الثلاث في كثير من خصائصها الموضوعية والأسلوبية كذلك، ولشديد هذا الارتباط بينها جاء الأمر بقراءتها، والمواظبة عليها، كما أن ارتباطاً وثيقاً بين الخصائص الأسلوبية لهذه السور وبين موضوعاتها، فقد جاءت الأساليب البلاغية خادمة لإظهار تلك المعاني والمقاصد، ومن هنا يتبين أهمية مثل هذه الدراسات، والإلمام بها.

ثانياً: ظهر في سورة الإخلاص كثير من الخصائص الموضوعية والأسلوبية للآيات المكية التي تنفرد بها عن الآيات المدنية، فكانت هذه السورة النموذج لماتتميز به السور المكية، سواء في موضوعاتها، فقد جاءت مقررة للقضايا العقدية، أو في أساليبها البلاغية، وخصائصها الأسلوبية.

ثالثاً: تجلى في سورة الإخلاص أسلوب التقديم كثيراً، سواء في تقديم الكلمات بعضها على بعض، أو في تقدم الآيات فيما بينها، ولهذا التقديم والتأخير أسرار بلاغية جمة، ولطائف بيانية متعددة، ومع هذا فإن بلاغة القرآن الكريم أسمى وأكبر من أن تُقدم لفظة أو تُؤخر أخرى لغرض لفظي، فلا يكون التقديم في القرآن لهذا الغرض، خلافاً لمن يتساهل في ذلك فيذكر أن الغرض من التقديم مراعاة الفواصل، فالتقديم في القرآن لا يكون إلا لغرض معنوي اقتضاه المقام، وتطلبه السياق.

رابعاً: كشفت هذه الدراسة السرَّ في افتتاح هذه السور الثلاث جميعاً

بفعل الأمر (قل)، والإشارة – كذلك – إلى دلالة وجود هذا الفعل في القرآن حين يكون الرسولε هو المأمور بذلك الأمر.

خامساً: بينتْ هذه الدراسة الحِكم البالغة في ختم القرآن الكريم بهذه السور الثلاث، والسرَّ – كذلك – في ترتيب هذه السور فيما بينها، وقد كان في ذلك حِكم بالغة، وأسرار بلاغية رائعة أظهرتها هذه الدراسة.

وبعد: فهذه أبرز النتائج التي أمكن الاهتداء إليها، والخروج بها في هذه الدراسة، وغيرها كثير ذُكرت في طيات هذه الدراسة.

ولا يفوتني في ختام هذه الدراسة التوصية بأن تتجه الدراسات البلاغية إلى دراسة النص كاملاً في ضوء السياق الذي جاء فيه، وما يحيط به من مناسبات النزول، سواء كانت الدراسة في البلاغة القرآنية، أم في بلاغة البشر شعراً كانت أو نثراً؛ فإن في ذلك نفعاً عظيماً، وعلماً غزيراً.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم

* * *

ثبت المصادر والمراجع

1 – إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العماري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

2–أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،لمحمد أمين الشنقيطي،مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1413ه

3– إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن قيم الجوزية، تحقيق:محمد كيلاني، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، 1381ه.

4– البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض، ود. زكريا عبدالمجيد النوني، ود.أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العملية، بيروت، ط1، 1413ه.

5– البلاغة الاصطلاحية، د. عبده عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1407ه.

6– التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله لعكبري، تحقيق: على البجاوي، دار إحياء الكتب العربية.

7– التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط10، 1408ه.

8– تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (د – ت).

9– تفسير جزء عم، لفضيلة الشيخ محمد بن الصالح العثيمين، دار الثريا للنشر.

10– تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، قدّم له: عبد القادر الأرناووط، دار الفيحاء، دمشق، ط1، 1413ه.

11– تفسير القرآن العظيم: جزء عم، لمحمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

12– التفسير القيم، لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد الفقي، مكتبة السنة المحمدية.

13– التفسير الكبير، للفخر الرازي، دار الكتب العلمية، طهران، ط2.

14– تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن السعدي، دار المدني جدة، 1408

15– جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت،ط: 1، 1412ه

16– حاشية زادة على تفسير البيضاوي،لمحيي الدين شيخ زادة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

18– سنن النسائي، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، اعتنى به ورقمه: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط4، 1414هـ

19– شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الدمشقي، تحقيق: د. عبد الله التركي، وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1408هـ.

20– شرح العقيدة الواسطية، للشيخ محمد بن العثيمين، دار الأصالة، الإسكندرية،ط: 1، 1419هـ

21– صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول، تركيا، ط1، 1374هـ.

22– صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن حجاج النيسابوري، حقق نصوصه: محمد فؤاد عبد الباقي المكتبة الإسلامية، استانبول(د – ت).

23 – على طريق التفسير البياني،د. فاضل صالح السمرائي، جامعة الشارقة، النشر العملي،1423هـ

24– علم المعاني: دراسة بلاغية نقدية لمسائل علم المعاني، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1419 هـ

25– علوم القرآن الكريم، د.عبد المنعم نمر، دار الكتب الإسلامية، ط2، 1403هـ

26– فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، لبنان، 1403هـ.

27– الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، لسليمان العجيلي الشهير بالجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1406هـ.

28– فضائل سورة الإخلاص وما لقارئها، لأبي محمد الخلال، تحقيق: د. أبو بكر علي الصديق، دار البشائر الإسلامية، لبنان، ط1، 1419هـ.

29– في ظلال القرآن، سيد قطب، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ط12، 1407 هـ

30– القاموس المحيط، لمجد الدين محمد الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 2، 1407 هـ.

31– كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، ط: 2.

32– الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لجار الله محمود الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1392هـ.

33– لباب النقول في أسباب النّزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، شركة ومطبعة

مصطفى البابي الحلبي، ط: 2، 1387هـ.

34- لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث، بيروت، ط3، 1413هـ.

35- مباحث في إعجاز القرآن، د. مناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط18، 1413.

36- مجمع الأمثال، للميداني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، 1416هـ.

37- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ.

38- مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، د.عدنان محمد زرزور، دار القلم، دمشق، ط 1، 1416هـ.

39- مسند الإمام أحمد بن أبي حنبل، بيت الأفكار الدولية الرياض، 1419هـ.

40- معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين البغوي، إعداد وتحقيق: خالد عبد الرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1407 هـ.

41- معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم الزجاج، تحقيق: د.عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1414هـ.

42- معترك الأقران في إعجاز القرآن، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1408هـ.

43- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ط: 1، 1411هـ.

44- ملاك التأويل القاطع بذي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ في آي التنزيل، لأحمد بن الزبير الغرناطي، تحقيق: د. محمدكامل أحمد، دار النهضة العربية، بيروت، 1405 هـ

45- من بلاغة النظم العربي، د. عبد العزيز عرفة، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1405هـ.

46- من بلاغة النظم القرآني:، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ط: 1: 1413هـ.

47 – الموطأ الإمام مالك بن أنس، حققه وخرَّج أحاديثه، وعلق عليه: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1417هـ.

48- نظم الدرر في تناسب الآي والسور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط: 2، 1413.

* * *

فهرس الموضوعات

المقدمة **313**
التمهيد.. **319**
المبحث الأول: التفسير البلاغي لسورة الإخلاص **326**
المبحث الثاني: التفسير البلاغي لسورة الفلق **342**
المبحث الثالث: التفسير البلاغي لسورة الناس **355**
المبحث الرابع: الحكم والأسرار في ختم القرآن الكريم بسورة الإخلاص والمعوذتين.. **368**
الخاتمة.. **373**
ثبت المصادر والمراجع **375**
فهرس الموضوعات **378**

* * *